ليتني امرأةٌ عاديّة

«ثرثرة عارية»

رواية

هنوف الجاسر

٢٠١٤

تدقيق ومراجعة

ماجد مقبل

Twitter: @MajedAbdr
E-mail: Mrawan242@hotmail.com



- ليتني امرأةٌ عاديّة
- هنوف الجاسر
- دار كلمات للنشر والتوزيع
- الطبعة الأولى ٢٠١٤

دولة الكويت / محافظة العاصمة - القبلة - شارع عبدالله المبارك ، برج علي ، الدور الثامن ، مكتب ١١

تلفون : ٩٦٥٩٩١١٩٩٣٤ +

بريد الإلكتروني : Dar_Kalemat@hotmail.com

موقع إلكتروني : www.DarKalemat.com

للتواصل مع المؤلف : hnoufaljasser@gmail.com

تويتر : HnofBntKreem@

رقم الإيداع : ٢٠١٤/٤٠١

ISBN: 978-99966-45-24-2 : **ردمك**

- جوّالِك لو سمحتِ . . !

أجفلني صوت الحارسة عند بوابة قاعة الزواج التي كانت ترمقني بنظرة حادّة أخافتني . سيّدة ضخمة تلتحف السواد ، ملامحها مُكفهرّة لا توحي بالفرح ، رُغم الاحتفال الصاخب الثائر خلفها . ارتبكَت ابتسامتي تحت غطاء وجهي وأنا أكذِبُ بتوتُّرٍ لأقول بأنه ليس بحوزتي هاتف خلوي . اندفعت تفتّش في حقيبتي الصغيرة التي لا تكفي إلا لمرآة صغيرة وأحمر شفاه. وأنا مذعورة أمامها ، أكتّفُ ذراعيَّ لأحفظ هاتفي المدسوس من السقوط .

أنا «فريدة» امرأة الثامنة والعشرون حديثاً . حضرت قهراً لزفاف ابن عمي الوحيد ، رُغم الوعد الذي قطعته على نفسي قبل سنتين بخصوص حفلات الزفاف . أن أكتفي بتهنئة كتابيّة للعروسين مُلصقةٍ مع هديّة الزواج ، بدلاً عن الزيارة التي تتطلّب الكثير من المال والوقت والتجهيز .

قبل خمس سنوات ، لم أكُن مشوّشة كما أنا الآن ، كُنت فارغة من الداخل . اهتماماتي لم تتعدَّ حائط المطبخ وكُتب خلطات التجميل .

مُنذ أن ودعتُ رقم «واحد» الذي يقِف على استحياء جانبَ الرقم الآخر من عمري . . وأنا أعاني من التفكير المتواصل الذي يُفسد عليّ متعة عيش اللحظة .

الآن ، أصبحت صبيّة عشرينيّةً جاهزة للحُب والحياة ، لديَ ما يكفيني من الخبرة العاطفيّة التي اكتسبتها في فترة المراهقة ، بعد سلسلة من العلاقات الوهميّة مع اللاعب والممثل ورجُل عشوائي رأيتُه صدفة في محل التسوّق ، ثُم أصبح بطل نصوصي الركيكة ، والكذبة اللذيذة التي أسردها على صديقاتي .

الآن ، لدي القُدرة لأندفع في علاقة حُب جديّة ، مع رجُل حقيقي أستطيع أن ألمسه ، أحادثه ، أضحك معه على الأشياء الساخرة التي لا يفهمها إلا العباقرة . لم أتصوّر أبداً أن تكون هذه الأحلام محض كومةٍ من الخردة التي لا تُلفت انتباهي .

أدركت أنها لن تتجاوز شاشة الهاتف المحمول ، وكل موعد وقُبلة وضحكة وحتى النظرة ستكون مجرّد بيانات ، تأخذ الحيّز الأكبر من ذاكرة الجهاز ، وتأخذ قلبي كله .

الرقم اثنان . . هو المرحلة التي تحوّلت فيها إلى امرأة أخرى مُتعبة . بينما تنشغِل الفتيات في عُمري ، بقصّة حُب مليئة بالهدايا والغزل . ويحددن جدولاً مناسباً لمتابعة المسلسلات . يجتمعن حول مجلاتٍ وطلاءِ أظافر ، يناقشن قضايا مصيريّة بين وسامة هذا الممثل وجمال صوت الآخر ، وجدتُني بعيدة تماماً عن هذا العالم الوردي .

هذا السنُّ تحديداً للحياة ، للحُب ، للجنون ، لكلّ شيء عدا الشيخوخة المبكّرة ، قلبي صار مجعّداً كتفاحة متعفّنة لا تُغري أحد ، وهذا البياض الذي يُفترض أن يكون فستاناً يزيّنه جسدي ، صار منسدلاً على أكتافي كظفيرة متعرّجة .

لا أدري متى تعثّرَت خطواتي في سلّم العمر ، وأصبحت كبيرة إلى هذا الحد المُخيف !

كل الذي أعرفه هو أني كبُرت كثيراً ، حتى ثقُلَتْ عليَّ

أحلامي وتساقطَت مني . تركتني نحيلة أقرب إلى الهيكل العظمي ، أتمدد في سريري كالمومياء ، يخاف منها النوم فيهرُب بعيداً .

في تلك الفترة المشؤومة من حياتي ، وبعد أن فقدت أملي بأن يكون لي صديقة حقيقيّة تتقبّلني كما أنا ، دون الحاجة لأن أستبدلني بأخرى تضحك على سخافات الأشياء وتتظاهر بأنها مهتمّة بتوافه الأمور . حاولت أن أعوّض نقصي بعلاقات افتراضيّة عشوائيّة ، كُنت أنا الصبيّة التي تبقى في المنزل أثناء المناسبات العائلية والأعراس ، بينما تتسابق لها الصبيّات في عُمري . يتحوّلن فيها إلى عارضات أزياء ، يعرضن خبراتهن في «صبّ القهوة» ورعاية الأطفال ، ومدى قدرتهِنّ على مصادقة امرأة خمسينيّة لديها ابن أعزب وسيم ، لتكون الخطْوة الأولى لهن – وربما الأخيرة – في محاولة عيش الحُب والحياة .

كُنت أنكمش في غرفتي أستمع للموسيقى وأتناول الكُتب . كلّما أرهقني الصمت نثرت ثرثرتي في شبكات التواصل تحت اسم مستعار ، أرتّب زحمة أفكاري في سطور

طويلة ، لا أحد لديه الرغبة والصبر لقراءتها حتى النقطة الأخيرة ، ما عدا «كارمن»!

كانت تقرأني بنهم وتترك لي تعليق عميقاً في نهاية كل نص . نُسخة جديدة من الصبيّات لم أرَ مثلها إلا في شاشة التلفاز . ولم أصدّق أبداً أنها عربيّة ومُسلمة حتى سمعتها تتحدّث بها بطلاقة خلال محادثة صوتيّة ذات يوم . لم اهدأ مُنذ أن قبِلَت «كارمن» طلب صداقتي وبدأتُ أتحدّث معها يومياً . كنت أنظُر بدهشة إلى صورتها الشخصيّة وهي تبتسم بعفويّة للكاميرا . شعرها الأشقر متموّج على كتفها المكشوف ويظهر على نحرها أثر نَمَش وسُمرة مُكتسبة .

ثار في رأسي صراع عنيف . بدأت أتحدّث إلى نفسي كثيراً حتى أحسستُ أن في داخلي أُخرى تناقضني في كُل شيء . امرأة غاضبة ، ساخطة ، ثائرة على كل شيء . حاولتُ ترويضها بالتجاهُل والانشغال في أعمال المنزل لكنها تظهر أمامي كالشبح ، فتُربكني لأوشك على السقوط .

«حسناء» أختي أحسّت بالتغيّر الذي بدأ يأكُلني فحدّثتني

ذات ليلة بقلقٍ تَضخَّمَ حين أجبتُها بسؤال :

– «انتِ حاسّة إننا عايشين الحياة صح ؟»

انهالت عليَّ بالنصائح وهي تلوم الأفلام الأجنبيّة والمسلسلات الدراميّة التي عبثت برأسي لتملأه بالأفكار الخبيثة ، ثُم أوصتني بالصلاة ووضعت بين يديَّ مُصحفاً وكتيّبَ أذكار .

أتذكّر تلك الليلة لم أنَم ، كُنت فيها أقرب ما أكون إلى الله وأنا مائلة الظهر في سجدة طويلة أرسلتُ له دعوات فيها من الذلّ والوجع ما تنفطر له الأحجار . لأوّل مرّة أبكي إلى هذا الحدّ الذي اهتزّت فيه أوصالي . رجوته أن يخلّصني من عذابي ويُعيدني إلى الصبيّة التي كُنتها قبل كل هذا الصراع والتشتت .

تمنّيت لو أن الأمر بسيط كما تراه أختي «حسناء» ، تمنّيت أني امرأة لا شيء يثير اهتمامها أكثر من إعداد وجبات جديدة ، واختراع وصفات سريّة تميّز أطباقها عن الأخريات . امرأة ترى في حياتها الفارغة نوعاً من الترف والدلال . تقضي

وقتها بالتسوق ومتابعة المسلسلات الدراميّة ، تندفع عاطفياً مع أحداثها كما لو كانت واقعاً تعيشه . امرأة تختار أن تُرهق أقدامها بالتنقّل من محل ملابس لآخر ، بحثاً عن مقاس يناسب شحمها بدلاً عن ممارسة الرياضة رُغم أن التعب واحد !

امرأة تشتم كل النساء السافرات وتقلّدهن في الأزياء والمساحيق وصبغات الشعر . امرأة بلا طموح ولا حُلم ، خاوية من كل شيء عدا السعرات الحرارية التي تحشوا بها معدتها بحجة الملل .

تمنّيت لو أني امرأة بريئة لا تعرف عن أسرار الحياة أكثر من الطريقة التي يأتي بها الأطفال إلى الدنيا . امرأة ساذجة تفتخر بالنقص الذي ألصقوه بها كرُكن من العقيدة ، تعتز بكونها دُرّة ، جوهرة ، حلوى – مغفّلة – لم تكتشف أنها إنسانة .

امرأة لا تكتب شيئاً عدا ما ينقصها من أغراض المنزل ، لا تقرأ شيء عدا ما يتداول بين النساء من رسائل – الواتس أب – المليئة بالدجل والخزعبلات . امرأة طيبة جداً ترى الوطن أرضاً خضراء مستهدفة .

تمنّيت لو أني امرأة عاديّة ، لم تقرأ ولم تكتُب ولم تكتشف الخدعة الكبيرة التي تسقُط فيها منذ أن انقطع الحبل السرّي بينها وبين الجنّة .

لكني بعد كل هذا التمنّي لم أتغيّر ، بقيتُ امرأة مزدحمة بالاستفهامات التي لا يجوز طرحها . لماذا وكيف ومتى والكثير من المقارنات التي بدأت تعصفُ بداخلي وتجعلني أنقرض أكثر مع الأيام . لم تعُد كتب الطبخ والخلطات مُغرية للتصفّح . أصبحت برامج التلفاز التقليديّة تُثير صراعي أكثر .

«هل هذا ما يريده الله لنا؟ هل ما يحدُث الآن هو الشكل الطبيعي للحياة؟ ماذا لو رفضت هذا؟ هل أكون إنسانة غير صالحة؟ ماذا لو أردتُ شكلاً آخر لحياتي؟ هل يهزّ هذا إيماني بالقضاء والقدر؟»

قبل ست سنوات كُنت أراقب أختي الأخرى «نورة» وهي تستعد للزواج من شخص لا تعرف عنه عدا اسمه الرباعي ووظيفته وعنوان منزله البعيد جداً . أنا من تكفّلت بتجهيزها للنظرة الشرعيّة وأنا أحدّثها عن فرحتي الكبيرة بهذا الارتباط

الذي أصبح كارثياً بعد شهرين من الزواج . مما جعلني أشعُر بالذنب كوني كُنت طرفاً بهذه الجريمة البشعة .

السبب الذي جعلني أشجّعها على الموافقه آن ذاك هو أن أكون العروس التالية التي تبدأ حياتها فعلياً وتتحقق كل أحلامها المؤجلة لما بعد الزواج ، كما كانت تعِدُني أمي بعد رفض أي طلب من شأنه أن يحوّل حُلمي لحقيقة .

كُنت أنتظر الزواج بلهفة السجين لخبر الإفراج عنه . أهدرت بانتظاري أبجديّة كتبتها بماء الذهب . رسائل غراميّة ونصوص غارقة بالحُب من أجل رجُل لم أعرفه بعد . وبينما أنا عاطلة عن الحياة وأمارس هذا الغباء كان هو في الطرف الآخر من الأرض يعيش حياته بكاملها .

كل رسالة حُب كتبها لم تكُن لي . كل ليلة قضاها بالسهر أثناء محادثة هاتفيّة طويلة لم أكُن أنا في الطرف الآخر من السمّاعة . كل الأشياء المجنونة التي قام بها لم تكُن من أجلي .

كانت من أجل امرأة أخرى اختارت أن تتخلّى عن حماقة

الانتظار وتعيش حياتها كما تشتهي وترغب ، دون أن تقيّد نفسها بشخص غريب لا تدري ما إذا كان سيأتي أم لا .

امرأة فكّرت كالرجال ، وتصرّفت كالنساء .

وكُنت من فرط سخافتي لا أريد أكثر من «رجُل» فقط ، بلا مزايا . لم يكُن لدي مُشكلة بأن أستند على عكّاز الحظ وأرتبط برجُل لا أعرف عنه شيئاً ، رُغم أني في كل مرّة يداهم قلبي فيها رجُل افتراضي بتعليق أو سؤال يتركه على صفحتي ، كُنت أتصفّحه بعنايةٍ وحِرص شديدَين قبل أن أكتب له رفضي بلُطف .

كُنت نيّقة بشأن مَن سيكون حبيبي ، وعشوائيّة تماماً بشأن مَن سيكون زوجي . رُغم أن الآخر سأقضي معه ما تبقّى من حياتي بينما الأوّل هو محضُ فترة مؤقتة ستمضي حتماً .

أما الآن ، فلا شيء يخيفني أكثر من الارتباط برجُل تقليدي بحت . ذوقه رديء في الملابس والكلمات ونظرته للحُب لا تتجاوز السرير والطعام .

رجُل بليد لا مُشكلة لديه بأن يفوّت ولادة طفلنا الأول ، أو

ذكرى زواجنا ، من أجل مباراة فريقة المفضّل . لا يقرأ ، لا يكتب ، لا يمارس الرياضة ، ليس لديه ما يفعله في وقت فراغه عدا التمدد وحشو معدته بالدهون . يخجل من مناداتي «حبيبتي» ويستبدلها بكلمات خاوية من المشاعر مثل «أم العيال» أو «الأهل» .

مُمِل ، تصرّفاته متوقعة ، لا يعرف كيف يُدهشني حتى في أبسط الأشياء ، كالكلمات الغزليّة . لا يراني أكثر من امرأة تطبخ له في النهار ، وتدلّله في المساء ، وما بين الاثنين أكون «لا شيء» .

رجُل كهذا آمل أن يكون قد انقرض .

بعد التخرّج أصبحتُ كائناً محشوّاً بالقُدرات العظيمة . أردتُ أن أكون مصممة أزياء ورفضَت والدتي بحجّة أن هذه ليست مهنة . ثُم قررت أن أتعلّم اللغة الإنجليزيّة والحاسب الآلي وتمّ رفض هذا لأن لا أحد متفرّغ ليتكفّل بتوصيلي كل يوم إلى المعهد .

ومع مرور الوقت انطفأت الشعلة بداخلي وأصبحت

مُـعطّلة . شـمّـرتُ عن ســاعــديَّ وبدأت أهرُب من البكاء والاكتئاب بأعمال المنزل ، حتى تشوّهت أظافري وتمزّق جلدي من المنظّفات .

كُنت أعود في نهاية اليوم إلى السرير مُرهقة . أرمي رأسي على المخدّة وأنام فوراً من شدّة التعب . أستهلك طاقتي بمسح الأرضيات وغسيل الأطباق وترتيب الفوضى التي يخلّفها إخوتي ، وأحتفظ بجزء قليل منها يكفيني لأغلق نور غرفتي وأرفع الغطاء ثُم أتقوّس أسفله .

اجتاح قلبي حُزنٌ كبير ، منعني عن الدخول في شبكات التواصل حيث يكون الناس فيها كلهم سُعداء . سيؤلمني أن أرى صبيّة بمثل عمري بدأت مشروعاً بتشجيع من أفراد أسرتها ، وأخرى التقطت صورة أخيرة للوطن في المطار قبل أن تغادر لتُكمل دراستها في الخارج ، وأخرى أصدرت كتاباً ، والكثير من الأخبار التي تزيد من شعوري بالتعاسة .

أكثر ما آلمني هو أني كُنت مؤمنة بقُدرتي على النجاح ، وطار هذا الايمان مع الرياح .

صار التبرير الوحيد لاستمراري في العيش هو أني مضطرّة وليس لأني أريد . وهذا الأمر أشد بؤساً من التشرّد والضياع ، فكُل مشرّد وضائع يستيقظ كل يوم من أجل شيءٍ ما ، إما للبحث عن لقمة عيشٍ أو لإيجاد هدف .

وأنا أستيقظ لأفعل أشياء لا رغبة لي فيها ولم أختارها منذ البداية ، فقط لأستمرّ في اللا شيء الذي يراهُ الآخرون «حياة» .

حزينة جداً . .

ليس لأني كسرتُ ظفري أو قصصتُ شعري أكثر من اللازم ، حزينة لأني تيقّنت أن أبسط أحلامي لن تكون حقيقة .

حزينة لأني لن أستطيع الاستيقاظ في يومٍ ما والخروج للجري حول الحيّ قبل أن يحين موعد العمل . لأني لن أجرّب لذّة الوقوع في الحُب دون الخوف أو الشعور بالخيانة لتربيتي وعقيدتي . لأن كل إنجازاتي خارج حدود المطبخ لن تُثير إعجاب أمي . لأني لن أستطيع - بين زحمة انشغالاتي -

الهروب على متن طائرة لقضاء بعض الوقت وَحدي في مكان هادئ . لأني اكتشفت أن كل السنين التي أمضيتها في مسيرتي التعليميّة لا تعني أني سأحصل على وظيفة رائعة .

حزينةٌ أكثر لأني مُجبرة على التعايش مع هذا الحال والرضى بهذا النقص ، فيدي الصغيرة لن تُحدث أي تغيير أمام كل هذه الحواجز والعقبات التي تقيّدني عن ممارسة الحياة .

صرتُ نُسخة مكرّرة من «نورة» وَ «حسناء» ، والكثير من الصبيّات هنا في قاعة الزواج الآن . فكّرت كم من واحدة حضرَت للسبب ذاته الذي كان يدفعني للحضور . الرغبة في الحياة والحاجة للشعور بالوجود والاعتراف بأني امرأة مستقلّة وإن كان هذا ظاهرياً فقط .

لا أحد يشعر بوجع الصبيّة العزباء التي دائماً ما يُستخفّ بأحزانها وهمومها ، فقط لأنها لا تتعلّق برجُل لا يبالي ، وأطفال كالشياطين الصغيرة التي لا تهدأ أبداً .

أتذكّر في كل مرّة تعرّضت فيه لضغط نفسي جعلني أتغيّب عن الدراسة ، كانت المعلّمة تسخر مني حين أتعلل

بالانشغال أو أقول لها أني كُنت «مُتعبة نفسياً» ، تسألني :

- من ماذا؟ من أطفالكِ .؟

حتى زميلات الدراسة ، حين يظهر عليّ الضيق والكدر ، أول ما يتبادر في أذهانهنّ الصغيرة هو «أكيد حبيبها مزعّلها» .

دائماً هناك «رجُل» . إنه الركيزة الأساسية لكل شيء يتعلّق بكِ . لا أعرف من أعطاه هذه العظمة . ودسّه في مجرى خلايا كل امرأة . جعله يتمدد في عقلها حتى استولى عليه تماماً . أصبح كعامود الخيمة الذي يستقيم به كل شيء . دونه أنتِ مجرّد قطعة قماش مطويّة ومركونة في مخزن يكسوه الغُبار .

لذا فقد كان الزواج بوّابة الحياة للمرأة . ولا يتمّ هذا إلا عن طريق الرجُل . هو من يبادر ويأتي ليطرُق الباب وما عليكِ أنتِ إلا أن تصلّي من أجل أن تُعجبيه لتبدأ حياتكِ فعلياً وتكبرين في ليلة واحدة فقط .

ليلة واحدة ، تُصبحين فيها امرأة مُعتَرفاً بوجودها . ويكون لأحزانكِ كيانٌ وقيمة .

يا للعجب . . !

«يولد رجالنا للعيش ، وتولد نساؤنا للانتظار ، انتظار الفُرص ، الحُب ، الحياة» . . وإذا كنتِ امرأة قد أشقاها الانتظار وأرادت التحرر من هذا النمط المتوارث من الحياة ، عوقبْتِ بالنبذ . كأنّ الله خلقنا نحن النساء للعذاب المستمر المتواصل ، وكُل محاولة منا للحياة هي خيانة للديانة والقبيلة والعُرف .

لا أحد يعرف كم يكون مُرهقاً أن تحمل على ظهرك سُمعة أشخاص لا تشاركهم في شيء عدا خواتيم الأسماء ، أن تضطر للتخلّص من أحلامك البيضاء لتحافظ على هذا الحِمل الثقيل من التشوّه .

هذه الأجساد الغضّة التي تتذوّق الموت أثناء ولادة حياة جديدة ، وتتجرّع العلقم في كل شهر ، الأجساد التي تعصُف بها العواطف وتؤذيها الكلمات المؤنّفة كالسهام ، من أين لها بالقوّة والصبر لتتعامل مع هذا الكم الهائل من التعب .؟

وبينما تحاول امرأة أربعينيّة لفَّ رأسها «بالشيلة» في أول الصباح ، هُناك في جهة أخرى من الأرض ، امرأة أربعينيّة

شقراء تمشّط شعرها استعداداً للهرولة حول حديقة الحي .

لا عجب أن نساءنا تشيخ بسرعة . .!

وفي خِضمِّ معركتي مع النفس ، غرقتُ بين صفحات الكُتب المسرّبة في الشبكة العنكبوتيّة ، أحاول أن أجد فيها ضالّتي ، بدأت مع مرور الوقت أفقد احساسي بكل شيء حولي حتى نسيتُ كيف يكون الحُب!

ولعل السبب الوحيد الذي يفسّر عطالتي عن الحُب هو رؤيتي المختلفة تماماً عن الارتباط العاطفي . كل ما يفعله الآخرون هذه الأيام - الذين يسمّون أنفُسهم عشّاقاً - هو التظاهر أمام الناس بأنهم كائنات فارغة من الحُب ، عاجزين عن الإفصاح بأنهم غير متوفّرين عاطفياً إلا في شبكات التواصل وبأسماء مُستعارة . . !

لا أحد لديه الجُرأة الكافية ليقول : أنا أحب فلانـ/ـة ، إلا في تغريدات ونصوص تُكتب في السر ، وتُمرر من تحت الطاولة .

لا أريد رجلاً يعيشُني في الخفاء ، يخجل من الاعتراف

بي أمام الآخرين كحبيبة يسعى جاهداً ليناصفها الحياة . لا تغريني التغريدات ولا القصائد ، ولن يُشعرني بالتميّز إذا كُنت مُلهمتك السريّة ، حتى وإن أصدرتني في دواوين غراميّة دوّنت فيها كل شيء إلا اسمي .

أريد رجلاً يفخر بي ويقول : هذه حبيبتي التي ستُنجب لي أطفالي . رجُلٌ يدوس بقدمه كل عادة جاهلة متوارثة من أجلي . لأنه يؤمن أني امرأة لستُ «عاديّة» . رجُلٌ عظيمٌ أكثر ما يثير قلقه هو ألا ينال استحسان والدي .

كُنت مؤمنة أن قصصنا الغراميّة مجرّد تجارب ، كلنا نبحث عن الغرباء حين نفكّر بالاستقرار وتأسيس عائلة .

وهذا ما سيحدُث حقاً ، بعد سنوات ربما قليلة أو كثيرة سأصبح زوجة رجُل غريب ، وسيكون المكان الأوّل الذي يجمعني به هو السرير . وسأنجب أطفال كالشياطين الشقيّة . ومع مرور الوقت سأفقد رشاقتي وقُدرتي على الكتابة لأنني مشغولة بملاحقة الصغار كي ينعم والدهم بنومة هادئة بعد ظهيرة عمل شاق .

سأبكي وأنا أعدّ الطعام ، سأبكي وأنا أقوم بأعمال البيت ، سأبكي إلى جانب زوجي الذي منعه الشخير عن الإحساس بي .

وستمضي الأيام ويكبر الصغار وينخرطون في مشاغل الحياة ، فيتركون المنزل لي ولوالدهم الذي أصبح صديقي الوحيد ، نتشارك الدواء والمواساة .

كانت هذه قناعتي التي طوّقتُ قلبي بها كدرع حماية من كل عاطفة حمقاء لا تعي البيئة التي حولها . هذه التُربة التي تسير فوقها أقدامنا غير صالحة للحُب ، حتى وإن أثمرَ فيها وأصبح له وريقات خضراء يانعة فهي معرّضة للقطع أو الاقتلاع ، وإلى أن يصِل إلى هذه المرحلة من الاخضرار والتورّد فهو بحاجة لرعاية خاصّة تتطلّب الكثير من الظلام والجدران والطاولات ليُخَبَّأ أسفلها وخلفها وما بينها ، هكذا كالخطايا السوداء .

كُنت ممتلئة بالاستفهامات حدّ التُخمة . مُثقلةٌ بالحيرة والكثير من الاسئلة الشائكة التي لا علاقة لها بالعواطف .

حتى صادفني في ليلة ماطرة رجُلٌ قذرٌ ترَكَ لي تعليقاً مقززاً على صفحتي مما جعلني أثور غاضبة وأنا في طريقي إلى صندوق الرسائل الخاصّة :

– ممكن تحذف تعليقك القذر؟ لوّثتَ صفحتي بعقليّتك القذرة» .

– يعني لازم أصير حيوان عشان تردي علي؟

– عفواً . .!

– كلمتك قبل عشر مرّات وبكل مرّة تجاهلتيني

– ما أذكر إني شفت حسابك هذا من قبل

– كلمتك من حسابي الثاني الفصيح ، حق الفلسفة والأدب

– وهذا حق الصياعة؟

– هذا حسابي الشخصي ، المهم أعطيني رقمك ما أحب المحادثات الكتابية

لا أدري هل أقول عنه وقح أم صريح . ولا أدري هل أقول

عني حمقاء أم غبية وأنا أدوّن له رقمي بعد خمس دقائق من التردد فقط . .!

لا زلتُ أتذكّر صوت ارتطام قطرات المطرِ تلك الليلة على نافذتي وأنا أتحدّث معه عبر الهاتف . كان مسترسلاً في الحديث ، ينتقل من موضوع لآخر وأنا أستمع إليه جيداً ويكبُر في داخلي الفضول لمعرفته أكثر . حاولت أن أجادله في بعض الأشياء التي قالها لكن خجلي منعني . ولو أخبرته أنه أوّل رجُل أتحدث معه صوتياً لضحك مني ساخراً وكذّبني .

«يوسف» كان رجُلاً سيئاً متصالحاً مع ذاته . ناقداً لاذعاً وساخراً لا يعرف الحدود والأدب . والأهم من هذا أنه لا يخاف رُغم كل التهديدات التي تصِله في التعليقات والرسائل بأنه سيُقبض عليه وسيُرمى وراء الشمس في كُل مرّة يتجاوز الخطوط الحمراء في نصوصه الطويلة . لم يبالِ بشيء ، لم يكترث ، ولم يتوقّف عن الكتابة بروح الفولاذ .

من بين كُل الكتب التي قرأتها خلال الفترة الماضية ، كان «يوسف» أكثرها جاذبيّة وإثراء . لم أستطع أن أمنع نفسي من

ولوج صفحته يومياً وقراءة نصوصه القديمة التي كتبها قبل سنتين . وفي كل مرّة يكتُب نصاً طويلاً جديداً ، تصلني رسالة تنبيه عبر البريد الإلكتروني ، كُنت أُنهي أعمالي في المنزل مبكّراً ثُم أجهّز قهوتي المُرّة وبعض الشوكولا وأجلس على كُرسي مريح وأبدأ بالقراءة .

صار مع الأيام السبب اللذيذ الذي يدفعني للاستيقاظ كل يوم . كُنت مؤمنة أنه رجُل خطِر بالغ السوء ، ورُغم هذا وجدتُ نفسي أرتبط به ارتباطاً مُخيفاً . أفقده حين يغيب وأحاول أن أتجاهل قلقي عليه – اللا مبرر له – بالانشغال بأعمال البيت والموسيقى والكُتب .

بدأت تظهر عليَّ أعراض غريبة . كُنت لا أنام قبل أن أطمئن عليه ، وأتفقّد حساباته في اليوم آلاف المرّات حتى حفظتُها عن ظهر قلب . كُنت أستعد لمكالماتنا الهاتفيّة وكأنها مواعيد غراميّة . لا أدري كيف حدث هذا كله ، ومتى ، ولماذا ، كل ما أعرفه هو أني وقعت به .

بكامل قواي العقليّة . . !

أكثر ما أخَافني بعد أن اكتشفت تورّطي به هو خسارته . كان صديقي الوحيد الذي لا أخجل من تعرّي عواطفي أمامه ، الوحيد الذي أعطى حُزني قيمة في كُل مرّة يظهر على صوتي الضيق والاختناق كان يسألني ساخراً : «تعّبك الكرف بالبيت؟» .

كان يهتم بي بطريقة صحراويّة خالية من كلمات الحُب ، لم يحاول مرّة أن يمسّ قلبي أو يتجاوز ملابسي عميقاً ليهزّ خيوط العنكبوت التي اتخذت الفراغات في قفصي الصدريّ مسكناً لها ، ويستبدلها بأزهار الكرز والقرنفل . على عكس هذا كله ، كُنت أنا الوحيدة من بين كل الأشياء التي لم يتعدّ الخطوط الحمراء معها ، رُغم أني أرخيتها من أجله .

هذا الأمر دفعني لتمحيص عاطفتي نحوه ، تمنّيتُ أن تكون محضُ وهم ، نتيجة فراغ عاطفي ، تمنّيتُ أن تكون سراباً كالنهر العذب الذي يُرى على بُعد آلاف الأمتار في قلب الصحراء . تمنّيت أن تكون كذبة ، خدعة ، مراهقة متأخّرة ، لكنها وللأسف حقيقة مؤذية ومُتعِبة كالأرق .

الُمحزن في هذه المصيبة هو أني لم أستطع أبداً أن أخبره .
كل ما كُنت أفعله هو ابتلاع غيرتي التي تشتعل في كُل مرّة تُسرف إحداهُن في مديحُه . ثُم تقفز إلى صندوق رسائله الخاصّة الذي كان يسبب لي قلقاً وإزعاجاً لا يُحتمل ، مما جعلني أصرّح له على سبيل الظرافة عن أُمنيتي بالاطّلاع على كواليس حساباته ، أتذكّر لحظة الصمت التي تبِعَت تصريحي هذا أثناء مكاملة هاتفيّة متأخّرة ، كُنت أنتظر ضِحكة ساخرة يتلوها رفضٌ صريح ، لكنه أخبرني أنه أرسل كلمة السرِ الخاصّة به على بريدي الالكتروني ، فكاد قلبي أن يتوقّف للحظة . . لم أصدق . . حتى سمعت صوت تنبيه الرسائل الجديدة .

تِلك الليلة ، تصفّحت حساباته بلا حواجز وهو على الطرف الآخر من السماعة . يُجيب على استفهاماتي الفضوليّة دون تذمّر . كُنتُ سعيدة جداً وشعرتُ بأنه قريب ، وهذا الفراغ الكبير بيننا تقلّص ليكون مسافة خطوتين فقط .

ورُغم كل الأرق والغرَق ، لم أكُن شجاعة بما يكفي لأُفسد ما بيننا بالاعتراف له . أربعة حروف فقط وتنتهي كل الأشياء

الجميلة . ومع محاولاتي الصارمة بالتجاهل والتظاهر باللامبالاة لأحافظ على سلامة العلاقة من شجارات الغيرة والاستياء التي لا تحدُث إلا بين العشّاق . . اختفى . . !

هكذا بلمح البصر ، قرر أن يبتعد دون أن يترُك رسالة وداعيّة مُختصرة . بدأت أبحث عنه وقلبي يخفُق ، وتمُرّ الأيام والأسابيع حتى صار عُمْرُ غيابه شهرين وأكثر حينها أدركت أن الرجُل الذي كان بالنسبة لي «روحاً وجسداً» كُنت بالنسبة له مجرّد بيانات ، يستطيع حذفها بكبسة زِر واحدة .

صِرت - كحال أغلب الصبيّات - في قاعة الزواج الآن . واحدة من آلاف المخذولات في هذه الأرض ، وأُخرى تمنّت أن تكون معطفاً ، سُترة ، ساعة معصم ، لحافاً ، وكل أشيائه الصغيرة ، لأني أدرك تماماً أني لن أستطيع أبداً أن أكون حبيبته المُتفق عليها شرعاً وعُرفاً . لا شيء يُمكن أن يفسّر صدق مشاعركِ أكثر من أمنية حقيقيّة في عينيكِ تقول : أريد أن أكون امرأتَك . دون الحاجة لأمنياتِ التحوّل للجمادات كالساعات والمعاطف . وأيّ رجُل لا تهزّه هذه الكلمات

ويستقيم ظهرهُ كمحاربٍ نبيل من أجلكِ فهو لا يحبكِ كما تظنين . ستكونين المرأة التي ترى وجهه في أوّل الصباح ، بتكشيرة فاتنة وشعرٍ مُهمل . ستناصفينه كل شيء حتى الأطباق والوسائد . ستُصبحين الوحيدة – من بين كل نساء الأرض – التي منحها الله حقّ تقبيله ، وهذه المساحة الآمنة في صدرِه ، لكِ وحدكِ .

لمَ تتخلّين عن هذا الدلال كله وترضين بأن تكوني ساعة؟

لا ينظُر إليها إلا في أوقات الحاجة أو الملل .

إجابة هذا السؤال تبريرٌ واحد ، بنبرة مالحة ، مُبللة بالذُلّ :
لأني أحبه !

لا شيء يجعلنا أغبياء وضُعفاء كما يفعل الحُب ، وفي الوقت ذاته لا شيء يمنحنا السعادة كما يفعل هو ، لذا فأنا لم أستغرب حين شعرتُ في لحظات الغرَق العاطفي بأنه الوجع الذي يُشعرني بالتحسّن . وفي كل مرّة غمرتني موجة من الفرح بسبب «ألو» لفَظها برتابة ، بعد سلسلة من المكالمات الفائتة ، كدتُ فيها أن أموت من فرط القلق . . !

الحُب وإن منحنا القوّة والصلابة ، فهو يُصيبنا بالهشاشة أضعاف المرّات ، لا سيّما أمام مَن نُحب ، وأنا أحببتُه كثيراً لدرجة تفوق الحماقة والكبرياء .

«يوسف» جاء ليُفسد عليّ نعيم الحريّة ، بعد أن كُنت لا أنتظر أحد ، أصبحت مقيّدة بانتظارُه في صفحات حساباته الخاوية من كُل شيء عدا آثار أحمر شفاه مُقززٍ على مساحة التعليقات من كل فتاة شاركتني افتقادُه . كُنت أحدّث صندوق بريدي الإلكتروني في اليوم عشرات المرّات ، لا شيء يُطمئِن قلبي أنه حيٌ . . وحُر !

وبعد أن أرهقتُ روحي من التفكير والقلق ، حاولت أن أجِد له عُذراً للابتعاد . رُبما لأني كُنت قريبة منه أكثر من اللازم ، كشفتُ عن ساقيَّ لأقفز فوق الخطوط الحمراء بيني وبينه ، وبدأت تدريجيّاً أنزع شيئاً من قشور الخجل حتى صار قلبي عارياً أمام عينيه الباردتين . .

كُنت كتلة عاطفيّة دَبقة متعلّقة به ، كعلكٍ داسَهُ بالخطأ في الطريق . تُبكيني دقائق تأخّره عن الرد وتُشعرني التفاتةٌ

عابرة بالنقص . أستاء من أشياء تافهة وأستَنْزِفُ صبرُه حين يسألني عن سبب كل هذا «الزعل» فأبحث عن كِذبة مناسبة . . هكذا كُنت أستيقظ كل يوم لأبدأ بالالتصاق والدوران حول أقدامه كقطٍ يموء جوعاً .

لا عجَب أنه رحل . . !

أتذكّر قبل سنوات ماضية كيف كُنت أستمتع بالثرثرة المليئة بالغيبة التي تدور بيني وبين قريباتي من الصبيّات على هذه الطاولة المستديرة . نشرّح فوقها نصف الحاضرات ، ومن ثمّ نتبادل السلام والأحضان مع إحدى الضحيّات بأيادٍ ملطّخة بالدم وابتسامات عريضة .

أتذكّر كيف كانت همومنا صغيرة وساذجة ، وأقصى أمانينا «رجُلٌ» تتحقق على يديه كل أحلامنا التي تزاولها النساء الأخريات كروتين طبيعي للحياة . كُنت في تِلك الفترة - التي أراها الآن نعيماً مسلوباً مني - في راحة وسعادة عظيمة . كانت تكفيني دعوة مُستهلكة تقولها لي صديقة كمحاولة لطيفة لإنهاء شكواي ، تكفيني جلسة حول مكسّرات وأكواب

شاي مع صديقاتي لأنسى كل الهموم المتكوّرة في صدري ، مثل كومة قُطن من الغُبار والجراثيم . كُنت بسيطة وعاديّة ولا أحتاج لهذا الكم الهائل من الكُتب كي أحشُر نفسي بين سطورها وأترامى في صفحاتها لأنسى . . كُنت سعيدة .

سعيدة للدرجة التي لم أكُن أرى فيها كل هذا السواد الواضح أمام عيني الآن ، كل هذا النقص ، الحرمان ، الجوع للحياة !

لا تتحدّث عن الملل وأنت لم تجرّب البقاء بين أربع جُدران لأيام طويلة فقط لأنك سافرت قبل شهرين ويُفترض أن يستمرّ شعورك بالفرح لمدى العُمر .

لا تتحدّث عن الحزن وأنت لم تجرّب أن تكون أبسط رغباتك تحت رحمة شخص يهتم بالمباريات والخروج مع رفاقه أكثر من أي شيء آخر .

لا تتحدّث عن القهر وأنت لم تجرّب أن تكون روحك رخيصة دون مَحرم أو غطاء وجه .

لا تتحدّث عن التعب وأنت لم تجرّب أن تُحشر في مؤخرة

سيارة مع سائق غريب في طريق تعبُر من خلاله الجِمال إلى مقر الدراسة أو العمل .

لا تتحدث عن الألم وأنت لم تجرّب أن تتعطّل حياتك من أجل شخص لا تعرفه ، وقد يكون في الطرف الآخر من الأرض يعيش حياته كما يشتهي ويرغب .

لا تتحدّث عن الشعور بالنقص وأنت لم تجرّب أن تصنّف ككائن ناقص الدين والعقل .

لا تتحدّث عن الوجع وأنت لم تجرّب أن تتجاوز سِنّ الثلاثين دون ارتباط شرعي ، وتُعامل كالأطفال الذين لا يُترَكون وحدهُم .

لا تتحدّث عن الخوف وأنت لم تجرّب أن تكون مضطرّاً للحفاظ على تاريخ حياتك من الدَنس والخطايا التي لا تمحوها الصلوات ، كالحُب !

كُنت أرى في حياتي البائسة شكلاً طبيعياً للعيش ، وكأنها إرادة الله وليس لي الحق في رفضها أو التصرّف بها ، في كُل مرّة أشعُر بعدم الرّضى أستغفر بإسراف وكأني اقترفتُ ذنباً

من الكبائر . . ليتني ما عرفت الحقيقة ، رُبما أكون الآن - رُغم كل الدمار المُحيط بي - في أقصى درجات السعادة . . !

وجودي في هذا المكان جعلني أرى نفسي القديمة وكأنها تمشي أمام عينيَّ . رأيت فيها الامتلاء الفارغ . رأيت الابتسامات التي أستخدمها لأتناسى ألم قدميَّ المحشورتيّن في حذاءٍ رفيع ، ومعدتي الغير قادرة على التمدد بسبب المشدّ الضاغط عليها دون رحمة . رأيت البساطة والراحة ، صبيّة في الثامنة عشر تَعي تماماً دورها في هذه الحياة ، راضيةً بأن تُقيَّد مواهبُها وإبداعاتُها حول جُدران المطابخ ، وأن تكون المساحة الوحيدة في هذه الأرض التي تمنحها الحريّة الكاملة بأن تكون مَن تشاء ، هي سرير مزدوَج .

«كارمن» كانت بمثابَة مرآتي التي أبوح لها بأسراري وكل فِكرة عنيدة داهمَت شعوري بالراحة والرّضى . لم أكُن أخجل منها لأني أعرف أنها لن تُطلق عليَّ الأحكام وتتهمني بالخيانة للديانة والقبيلة فقط لأني خالفتُ السائد وفكّرت في لحظة . .!

صوتُها الطريّ لا يزال يرنُّ في أذني حين كانت تُشاركني

الشتائم والدعوات السوداء على كُل مَن حال بيني وبين ممارسة الحياة بشكلها الطبيعي ، بعيداً عن هذا التشوّه والمساخَة .

وبينما كُنت أتخبّط في دوّامة من الاستفهامات المحظورة ، كانت هيَ تعيشُ حياتها ببساطة ، تعمل مُعلّمةً في روضة أطفال وتدرُس اللغة الفرنسية في الوقت ذاته ، أخبرتني أنها تحلُم بالهجرة إلى باريس والاستقرار هناك ، وحين سألتها عن السبب قالت لي :

- لأنها وطن العشّاق .

رُغم كل علاقاتها الغرامية الفاشلة ، لم تتشوّه نظرتها للحُب ولا تزال مؤمنة أن هناك رجُل واحد في هذا العالم ينتظر هطولها على قلبه . هذا ما دفعني لاستعادة شكاوي صديقاتي من الرجال في وقت الفُسحة وحِصص الفراغ وما بين المحاضرات ، كُنَّ يشتمنَ الحُب بأبشع الكلمات ، يبكينَ حتى ترتجف أطرافهُنَّ الغضّة ، تخرُج الواحدة منهُن من علاقة حُب فاشلة ، صبيّة ساخطة على الحُب غاضبة على الرجال .

رُبما لأنها أرادت علاقة ملحميّة ، مثل الحكايا الخرافيّة ،

اكتشفت أن فارسها مجرّد رجُل عادي يغضب ويستاء ويشعُر بالضجر منها في لحظات . أو رُبما لأن الكبرياء منعها من الاعتراف بأنها مُذنبة بهذا الفشل العاطفي ، لذا هي تلوم الرجل وتعلم – في هذه الحالة – أنها ستجِد من تمُد لها ذراعيها وتشاركها البكاء والشتائم .

لا أعلم متى سيحين الوقت الذي تتنازل فيه الصبيّات عن هذا الغرور ، ويقتنعن أنهُن من البشر ولسنَ ملائكة يُسَخِّرُ الرجال من أجلهِنَّ أجسادهُم لصلوات الشُكر والحمد عليهِن .

استيقظي صديقتي الجميلة ، هذا زمن المُشاركة في كُل شيء حتى العواطف التي تبخلين بها عليه ، لزعمكِ أن مجرّد وجودكِ في حياته هو أمرٌ كافٍ .

حاولي ولو لمرّة التوقف عن انتظار اتصاله ورسائله وبادري بها أنتِ . تنازلي عن كبريائكِ في لحظات الخصام واعتذري أولاً . كوني طيبة وسامحيه في أوّل محاولة منه ليكسب رضاكِ مهما كانت ساذجة . تجاوزي عن زلاته وهفواته الصغيرة وتقبّلي جانبه الذكوري الخشن الذي يظهر حين يلعب ألعاب الفيديو أو

أثناء متابعة مباراة رياضية .

ذهب الزمن – أو رُبما لم يأتِ يومـاً – الذي تجلسين فيـه بغرور رافعةً قدماً فوق الأخرى ، ثُم تتوقّعين منه أن يجثو على رُكبتيه مثل أميرٍ شهم ويرفع إليكِ كل ما ترغبين به بطبقٍ من ذهب .

ولو كنتِ مؤمنة بأنكِ تستحقين هذا الدلال الكثير لأيّ سببٍ سواءً كان الجمال أو النسب ، فاستيقظي الآن ، النساء الجميلات ذوات النسب المرموق في كُل مكان كالهواء تماماً ، والحُب صار أبسط من شُرب الماء وأرخص من الخُبز ، ورُبما يوزّع مجاناً .

فإما أن تكوني طرفاً نشيطاً في هذه العلاقة ، تقدّمي الحُب كما تستقبليه وتعيشين حياة سعيدة مع هذا الرجل الذي تخلّى عن حرّيته من أجلكِ ، وإلا استعدّي من الآن لسهرة مبيتٍ مع صديقاتكِ المدللات الأخريات ، تتناولن فيها المثلجات وتشتُمن الرجال والحُب .

ولا أدري قد يكون الرجال فعلاً بهذه القسوة ، فأنا لم أنسَ

أبداً الذكرى المؤذية التي خلّفها لي «يوسف» ، كجرحٍ رطبٍ في قلبي يأبى الجفاف والتقشّر ، يؤذيني كلّما انحدرَتْ عليه دمعة مالحة من عيني .

أرخيتُ ظهري على الكرسي ثُم أطلقتُ تنهيدة عميقة لأتخفف من هذا الهمّ الذي استوطَن صدري . هذا الاختلاف موجعٌ وليس مُغرٍ أن تكون اللون الشاذ في الصورة ، أرى وجوه الصبيّات مُزهرةً بالابتسامات ، نَضِرة مفعّمةً بالحيويّة ، وأرى انعكاس وجهي على – حافظة المحارم الورقيّة فوق الطاولة – مُثيراً للشفقة .

الموسيقى صاخبة ، والألوان تتفجّر من فساتين الجميلات ، والأزهار تزيّن الطاولات ، وتعانقت خيوط البخور مع العطور العصريّة في الهواء ، ضحكاتٌ فاتنة وابتسامات من شفتين لم تمنعها التجاعيد من تقبيل أحمر شِفاه صارخ . كل هذا الازدحام من الفرح زادني شعوراً بالوحدة والنبذ . لم أكُن مُغرية لأكون رفيقة السهر ، وحدي أجلس وبين أصابعي النحيلة فنجان قهوة باردة .

هذا الشعور لم يقتصِر على واقعي ، بل كان ملازماً لي حتى في حياتي الافتراضيّة رُغم أني وجدتُ الكثيرات قد تحررنَ من نعيم الجهل ، وأصبحنَ أسيرات الأسئلة والأرق . كُنا نتشابه في كل شيء ، حتى في الخوف من الاقتراب والبوح عمّا في صدورنا من خطر .

لذا فنحنُ وحيداتٍ ، تقيّدنا الرهبة والفزع . . !

من الصعب أن تكوني امرأةً في عالم افتراضي مهما كنتِ طبيعيّةً فأنتِ محلّ شك !

كل صبيّة ظريفة تتكلّم بعفوية مع الأشخاص في قائمة الأصدقاء أو المُتابعين ، مُزاحها لطيف لا يخدش ولا يجرح . هي عديمة حياء .

كل صبيّة جريئة ، تقول ما تُريده دون تحفّظ أو خجل ، لا تهتم برأي الآخرين عنها ، تكتُب بصراحة تامّة ثُم تُدير ظهرها عن الثرثرة السوداء والدعوات اللاذعة في مساحة التعليقات . هي عديمة تربية .

كل صبيّة خجولة ، متحفّظة بحذر ، تكتُب نصوصاً طويلة

بأصابع ترتعش ثُم تمسحها وتقلّصها حتى تكون ثلاثة أسطُر أو أقل ، تُجيب على الفضوليين بكلمة واحدة مهزوزة . هي حتماً معقَدة .

في كل حالٍ من الأحوال أنتِ سيئة لأنكِ أساساً موجودةٌ في هذا العالم الافتراضي . يُفترض أن تكوني عضوة في منتدى نسائي أو بمجموعة في تطبيق محادثات ، يتم فيها تداول صورة «بطاطا» مكتوب عليها اسم الجلالة . .

لا يجب أن تتجاوزي هذا الحد . . !

كُنت أظن أن هذه الأحكام السوداء يُطلقها الغرباء فقط ، لم أتخيّل ولو لمرّة واحدة أن يكون صديقي «مالك» واحداً منهم ، عرفته لأكثر من ثلاثة أشهر ، كُنت رفيقته في السفر والشخص الوحيد الذي منحه الأمان الكافي للشكوى والفضفضة . كان في نظري رجُلاً طيّباً ، يُشبهني في اختلافي ، يفهم نبرة صوتي ، يشعُر بوجعي كما لو كان جرحاً ممتدّاً في ذراعه . كُنت أراه صديقاً حقيقياً ، سأحتفظ به .

ورُغم كل هذا البياض الذي حملتُه في صدري له ، كُنت

في نظرِه صبيّة سيئة ، خائنة ، رَميتُ بتربية أُسرتي عرض الحائط وطعنتُ شرفي وعقيدتي بأظافري في كل مرّة أكبس على الحروف في لوحة المفاتيح لأكتُب له رسالة بريد طويلة ، أو أضغط السماعة الخضراء حين يكون المُتصل «صديقي الأفضل» .

ظهرت حقيقته حين عاد إلى الوطن ، وبدأت محادثاتنا تتخذُ مُنحدراً مُقززاً ، كُنت أغضب وأستاء ثُم يعتذر ويكرر المحاولة في وقتٍ آخر ، أراد أن يحوّل صندوق المحادثة إلى غُرفة نوم ، وحين واجهته بالرفض الصريح ، قال لي ساخراً :

- هذا الدور لا يليق بكِ .

الوقت الذي كُنت فيه سعيدة معه لأنه اختارني ملجأً بعيداً عن زحمة الشقراوات في أرض الغُربة ، الوقت الذي ظننتُ فيه أني صديقته الثمينة ، الصبيّة الطيِّبة التي تشاركه ذات اللغة والصحراء ، كان يراني أرخص من عِقدٍ مُتدلٍّ على صدره ، هذا الصدر الذي كان مرتعاً لكل امرأةٍ تبحث عن النسيان أو المُتعة . لم يُعانِ هناك من جوع الغريزة العاطفيّة ، كان مُكْتَفٍ حدّ التُخمة . الأمر اختلف حين عاد ، وصار من

الصعب أن يجد مَن تمنح أصابعه حق العبور على جلدِها والعبَث . . ما عدا «فريدة» . .!

الأزمة التي تجلّت أمام عينيَّ بعد هذه التجربة المُرّة ، هو أن صداقة رجُل بامرأة ثمرة غير صالحة للنمو على هذه التُربة تماماً كما هو الحُب ، وبعيداً عن العادات والتقاليد والعُرف والعقيدة ، بعيداً عن كلّ هذه الأشياء البديهيّة ، الأزمة الحقيقيّة تكمُن في أنه مهما كانت المرأة صديقة طيّبة ستبقى دائماً نظرة الرجُل لها سوداء أو رُبما رماديّة ، حتماً لن تكون بيضاء . ولا أظن أن هناك امرأة حمقاء - حتى الآن - تنظُر لرجُلٍ مثل «مالك» أو غيرِه ، نظرةً نقيّة ، طاهرة .

تبدأ الصداقة وكل طرفٍ يحمل فِكرة سيئة عن الآخر . . يا للسخافة !

كلّ رسائلي ونصوصي التي كتبتها في الفترة الخضراء من صداقتنا ثُم دوّنتها بصفحتي بكامل الحُب والامتنان ، استقبلها القرّاء بالقذائف فقط لأنها موجّهة إلى صديق وليس إلى عاشق . .!

كـيف تكون الكتـابة من أجل «صـديقٍ» عـاراً ، وحبـرُها البيـاض والنقـاء؟ لأنه رجُل؟ حتى العـاشق رجُل ، ورُغم هذا رأيت مَن يصـفّق لكاتبـة أصـدرت ديواناً كـامـلاً تـتـغـزّل فـيـه بحبيبها ، وأُخرى كتبت نصوصاً مليئة بالقُبل والأحضان من أجل محبوبها المنشود ثُم صارت مساحة التعليقات حديقةً أزهارُها الإعجاب والدهشة .

كـيف تكون الصـداقـة أشـدَّ عـيـبـاً وجُـرمـاً ، وفي الحُب احتمالات لحدوث المحظور والخطأ؟ هذه الاحتمالات معدومة بين الأصدقاء ، وأعني الأصدقاء الذين يُدركون الصداقة الحقيقيّة .

هذه الاستفهامات مُقلقة ومذاقها كالعلقم ، لذا رميتها وراء ظهـري وقطعتُ عـهـداً على نفسي أن أبقى دائمـاً – أمـام كلّ الرجال – مجرّد «اسم مستعار» .

«فريدة» . . لعنة هذا الاسم التصقَت بي كشامةٍ لا يمحوها الزمن . لماذا يجب أن أكـون فـريدةً في وقت لا تسـعَـد فـيـه إلا المُتشابهات؟ لمَ لـمْ يختـار والديَّ اسمـاً آخر ، ليس له علاقة بالتفرّد والاختلاف . .!

هذا الاخـتـلاف مُـرهِق ، يدفـعني كل يوم لاسـتـبـدال شـخـصيّتي بأُخرى كـمـا أفـعل مع مـلابسي . مضطرّة دائمـاً لاقـتـصـاص آرائي وكلمـاتي حتى تلائم مَن حـولي ، مـضطرّة للكذب والخداع ، كـمـا أفعل الآن في هذا المكان ، لـم يكُن بي طاقة لأتحمّل غضب أمي عليَّ هذه المرّة ، ليس بعد أن هجرتني وكـأني لم أولَد ، فـقط لأني لـم أذهب معهـا ليلة عقـد القران ، لأستعـرض هدايا الله من جَمال وقوامٍ ممشوق أمام النساء ، ثُم أخلّصـهـا من همّي وثرثرة الناس الذين لا يكفّـون عن حـشـر أنوفهم بما لا يعنيهم .

بقـائي عــزباء طيلة هذه المُدة لن يُنقِص من مــالهم أو أعمـارهم شيئـاً ، لكنهم لا يزالون يتصـرّفون كـمـا لو أني أقفُ حاجزاً بينهم وبين الانشغال بالحياة ، أصبحت «فريدة» حديث مجالس النسـاء والقـضـيّـة التي تُسبب لهم الأرق . . وأولهنّ كانت أمي .

أعرف أن شـأني يُتعبـهـا كثيـراً ، أعرف أني السبب الذي يدعوها لمغادرة السرير في مُنتصف الليل والجلوس على سجادة

الصلاة والبكاء سراً . أمي لا تشعُر أني مُتعبة مثلها منّي ، أنا لم أطلُب أن أكون لوناً شاذاً ، أتمنّى أن أعود كالسابق ، قبل أن أكتشف كل أشكال الأرق وأطّلع على الاستفهامات التي لم تكُن مُتاحةً للطرح ، حين كُنت أثقل وزناً وأخفُّ همّاً . . !

عندما استقام ظهري ومشيتُ إلى خشبة الرقص ، رأيتُها تبتسم وفي عينيها وميضٌ دافئ ، كانت سعيدة حدّ البكاء ، ولم تترُكني أتمايل على أنغام الموسيقى وحدي بين ازدحام الجميلات ، قفزَتْ تُشاركني الرقص وفي ذات الوقت تعرضُني أمام الناس ، علّها تجد امرأة مستعدّة لرَمي ابنها في هذا البؤس والشقاء المغلّف بالمساحيق .

رُغم بشاعة الموقف ، إلا أنّ الفرح غمَرني وأنا أرى أمي لأوّل مرّة تضحك حتى تتورّد وجنتيها . لا يهمّني مظهري كسلعة معروضة للبيع والمساومة ، الأهمّ أن أمي سعيدة وأشعُر برضاها يطوّق قلبي ، على الأقل في هذه اللحظة . . في هذه اللحظة فقط .

رقصة واحدة فقط ، أزالت تاريخي الأسود أمام عينَي أمي

وصرتُ ابنتها «الجميلة الفريدة» ، قالتها لكل امرأة صافحتُها بعد أن غادرت خشبة الرقص برفقتها ، وبينما هيَ استمتعت باحتمالات أن لا تنتهي هذه الليلة إلا وأنا مُرشّحة للزواج ، استمتعتُ أنا برؤيتها سعيدةً بي لأوّل مرّة ، مُنذ تخرّجي من الجامعة قبل خمس سنوات .

أفراحي بعد تِلك المُناسبَة أصبحت نادرة ، ومع مرور الأيام اختفت تماماً ، وكلما كبِرت أصبح من الصعب أن أجِد سبباً للسعادة ، وأستطيع أن أسرُد قائمة من الاسباب تتجاوز المئة ، التي تفسّر تعاستي . أظن أن قلبي يتقلّص كلما كبُرت .

لستُ جاحدة لِنعم الله ، غارقة بها من رأسي إلى أخمَص قدميَّ ، منزل آمن ، أُسرة طيّبة ، غُرفة أكون بها حُرّة ، هاتف وكمبيوتر محمول ، شهادة جامعيّة تُزيّن الحائط ، والكثير من الفساتين والمجوهرات والحقائب ، لا ينقصني شيء عدا أن أعود للصبيّة التي كُنتُها قبل أن يحدُث كلّ هذا . . أن أعود للطمأنينة والفراغ . . !

كُنت قد استسلمتُ أخيراً ، ورضيتُ بقدري ، بهذا

الاختلاف المُزعج ، بكل الأشياء التي تجعلني وحيدة . أتذكّر برودة الأرض حين غادرت سجّادة الصلاة وأعددتُ لي وجبة إفطار صغيرة أخذتها معي إلى حديقة المنزل ، سحبتُ من مكتبتي رفيقاً لعُزلتي . أسندتُ ظهري على الكرسي الخشبي واستنشقت الهواء ملءَ رئتيَّ ثُم أطلقته بابتسامة رِضى . كُنت على وشك التصالح مع ذاتي ، قبل أن يصلني تنبيه من صندوق رسائل البريد ، كان نصاً جديداً دوّنه «يوسف» قبل دقائق ، بعنوان «فريدة» !

كتَبَ فيه :

« ليس من العدل أن أنتصر على نفسي وقبيلتي وكل الذين وقفوا في وجهي ، ثُم تهزمُني امرأة . ليس من العدل أن يستقيمَ ظهري كرمحٍ لا يميل عن الصواب ، ثُم تكسرُني امرأة . ليس من العدل أن يخونني قلمي الذي أكل من أفكاري حتى شبع ، ليكتُب لامرأة . ليس من العدل أن يستيقظ قلبي في هذا العُمر المتأخّر وينبض من أجل امرأة . . امرأةٌ اسمُها «فريدة» . . وليتها لم تكُن . . !

ليتها كانت امرأة عاديّة ، كتبَت لي دعوةً سوداء في أوّل محادثة جمعتني بها ثُم اختفَت . ليتها كانت ساذجَة مثل كل اللواتي يجتمِعنَ حول نصوصي كالذُباب ، ثُم يُحاولنَ استمالتي بكلمات المديح والغزل الرخيص . ليتها كانت جاهلة لا تراني إلا ذئباً يُريد افتراسَها . ليتها كانت أيَّ شيء ، إلا «فريدة» .

ما قتلني شيءٌ أكثر من كونها «فريدة» . ما أعجزني شيء أكثر من كونها «فريدة» . ما صيّرني ضعيفاً إلى هذا الحد ، أكثر من كونها «فريدة» . ما جعلني ذليلاً لقطعة لحم بحجم قبضة يدي . . إلا كونها «فريدة» . . !

هذه المرأة الوحيدة التي حققت أحلام الأغبياء الذين يسردونها في صفحتي ، وحدها من أسرتني وقيّدتني وجعلتني حبيس ذكراها الفريدة . لم تنزعْها منّي المُسكرات والمخدرات ولا حتى الموسيقى والكُتب . تشعّبَتْ فيَّ حتى صارت روحاً تسيّرني حيث تشاء . أُعلن انهزامي وضعفي ، وأعترف أن كُل جهة أهرُب إليها تقودني إلى «فريدة» . . «الوداع يا حمقى» .

وكان هذا آخر نَصٍ كتبه قبل أن يهجر الحساب ولا أدري إلى أين ذهب ، كل الذي أعـــرفــه هو أني لم أكُن وحـــدي متورّطة . . !

لم أشعُر بلذّة الانتصار أو البطولة وأنا على يقين أنه لن يعود ويسابق الريح إلى بابي ، معه باقة ورد حمراء ، وفي شفتيه اعتذارٌ ناضج ، أعرف أن هذه الأرض لن تكون مناسبة لمشهد رومانسي يلتحم فيه قلبان أثناء نظرة . لن تُزهر الأرصفة ويبتسم المارّة ، لا شيء هنا عدا الجفاف والتجهُّم . . !

ومن شدّة وجعي وانكساري حاولت أن أتظاهر بأني قد نسيتُه وتوقفت عن انتظارِه كي يعود فجأة ، لكنه استمرّ غائباً عني لفترة طويلة ، بقيتُ فيها حزينة كحُزن امرأة فاتها أن تقول لرجُل جندي قبل أن يغادر الوطن أنها تُحبه . . لا رسائلَ تصِل ولا تملك أي وسيْلة تُطفئ بها جوع أُذنيها لصوته الثخين . . شعور يُشبه الموت .

كوني على يقين أنه سيعود حين تتوقّفين عن ممارسة الانتظار كعبادة مفروضة . سيفاجئكِ ككابوس مُفزع ، ويُفسد

عليكِ متعة العيش والحُب . ستغتال قلبكِ مشاعر قديمة ، وتذكُرين كيف كنتِ تهربين من العالم إلى صدره ، وكيف كان اتصالٌ متأخّرٌ منه يأخذكِ إلى الجنّة ، صوتُه حين يتغلغل في مسامعكِ ، عميقاً إلى قلبكِ المخمور به ، كأنه يلمسه ، يحضنه ، يقبّله بشغف . . !

وتذكُرين كيف كنتِ تتدللين بين ذراعيّه كطفلة ، تعرف تماماً أن هذا الرجُل لن يخذلها . سيوقظهُا في الصباح بقُبلة شقيّة على قمّة أنفِها الصغير . طفلة وَضعَت كل آمالُها وأحلامها في ظهره ، وتعلّقت فيه ثانيةً رُكبتيها ليدورَ بها دورةً تجعل الفراشات في فستانها تتسابق لتُوقعَها في غرامِه من جديد .

تذكُرين في مُنتصف ابتسامتكِ هذه ، وجع معدتكِ حين يتجاهل اتصالاتكِ المتكررة قلقاً عليه ، يرمي هاتفَه ويقبّل صديقاته واحدةً تتبعُها الأخرى ثُم يدوسهُنَّ كما يفعل بقلبكِ الحزين ، ومع كُل رشفةٍ لسجائره النحيلات ، يُحرقهُ أكثر حتى يُصيّرهُ رماداً .

تتمزّقين بين لذّة ماضٍ مكسور ، وأمانِ حاضرٍ مشوّش ، تذكّري حينها ألا ترتكبي ذات الحماقة العاطفيّة واهجريه كما يفعل الفقراء بأوطانهم الظالمة . . !

ليت الأمر كان بهذه البساطة في حكايتي مع «يوسف» ، لم يكُن يوماً حبيبي ولم أكُن حبيبتَه ، كُنا اثنان لا تعريف لهُما ، لسنا عشّاقاً وحتماً لم نكُن أصدقاء ، لا أدري بأي شكلٍ من الأشكال أصنّف هذه العلاقة . . كخيالٍ لذيذ عبَرني ثُم اختفى بغمضة عين .

لم أحتفظ بأي صورة له ، وحتى صندوق الرسائل كُلها منّي إليه ، كان يُجيبني بمُكالمة أو مُحادثة صوتيّة طويلة يُفسدها عليَّ النُعاس . ليس بحوزتي ما يكفيني من الأدلة على أنه كان جُزءً من حياتي يوماً ما . والآن بدأت أرى السبب الذي جعله يمتنع عن كل هذه الأشياء ، أراد أن يكون طيفاً ، شبحاً ، يخترق ذاكرتي وقلبي دون أن يُحدث جلجلةً أو ارتباكاً ، دون أن يترُك أثراً . لا يدري أنه صار يحتلّ الجُزء الأكبر من ذاكرتي . . ويحتلّ قلبي كُله .

صِرتُ حائرة كيف أعيش هذا الحُزن ، كيف أبكي أمام نفسي على رجُل لم يتعنَّ محاولة التقرّب إلى أبي . الرجُل الطيّب الذي تقوّس ظهرُه كي يمنحني أنا وإخوتي سقفاً ودفئاً وخبزاً وماء . الرجُل الذي يحرص على أن يُغلق باب المنزل بإحكام قبل أن يضع رأسه على المخدّة وينام ، كي يتأكّد من سلامتنا من اللصوص والقَتلة ، نسيَ أن يُغلق باب قلبي ويحتفظ بالمفتاح ، ثُم يسلّمه إلى رجُل طرَق باب البيت من أجلي .

لا يعلم أبي ، أن اللصوص والمجرمين ليسوا في الشوارع فقط ، إنهم بيننا يظهرون بهيئة الملائكة والفُرسان النبلاء ، يستهدفون قلوب الجميلات .

لا يعلم أبي أنّ الحُب ما عاد يُهرّب من النوافذ والمواعيد ما عادت تُسرق من شقوق الأبواب ، كُل شيء صار يُقدّم جاهزاً بضغطة زر ، كل هذه المسافات الطويلة التي تفرّق اثنين يُمكن أن تتقلّص بضغطة واحدة فقط .

لا يعلم أبي أن ابنتَه التي كانت تقفِز فوق أكتافه وتمتدُّ

لحيته الطاهرة بين أقدامها الطريّة ، كبُرت وشبَّ قلبُها واخضرَّ في حُب رجُل آخر . . رجُل مطلوب أمنياً . .!

هذا الجرح الذي تركهُ «يوسف» في صدري صار حبراً ركيكاً يملأ مذكّراتي السريّة . عتاب وشكوى وكلامٌ عاطفي يفضح فيَّ الضعف والانكسار .

صرتُ ثائرة على عواطفي ، ساخطة على قلبي الذي لم يتوقّف أبداً عن انتظارِه ، يُفزعني بعد كُل تنبيهٍ للرسائل الجديدة في البريد الوارد ، ينقبض ويخفق بعُنف ، فيندفع الدمُ سريعاً إلى أطراف أصابعي وملامحي فيكسوها بالاحمرار . . الذي يزداد في لحظةٍ ، ثُم يصير بكاء . .!

«كارمن» كانت الكتف الذي رميت عليه رأسي وبلّلتُه بالملوحة . كانت طيبة بما يكفي لتستمع إلى شكواري التي تنفلت من شفتيَّ كسيلٍ جارفٍ لا أحد يستطيع التوقّف أمامه ، كانت قريبة جداً حدّ الشعور بنبضات قلبها عبر سماعة الهاتف .

قلّبت بالشوكة ثمرة الباذنجان المحشوّة في الطبق أمامي ،

قبل أن أتناول قطعة منها وأنا أبتسم في وجه أمي التي تقابلني على طاولة العشاء . لم تستطع أن تُزيح عينها عني ، نظراتها كانت سعيدة وفخورة كما لو أني قد أنجزتُ بحثاً علمياً سينفع البشريّة . في الحقيقة ، لا أظن أنها ستفخُر بي إلى هذا الحدّ لو أني فعلاً أنجزت هذا البحث ، لا أظن أن هناك شيئاً آخر سيجعلها فخورةً بي عدا أن أكون امرأة صالحة لرجُل صالح ، يعرف الطريق إلى المسجد عن ظهر قلب .

جُزءٌ منّي يشعُر بالذنب لأني وقفت بينها وبين فرحتها الأخيرة ، أخّرتُها حتى اقتربتُ من سِن الثلاثين ، الفترة التي تخافُها الفتاة وتبُثّ شكواها للسماء أو في موقع نسائيّ حيث تجتمع حولها الطيّبات ويُهَوِّنَّ عليها هذي المُصيبة ، ثُم يختِمْنَ زيارتهِنّ بالدعاء أن يُرزقها الله رجُلاً طيّباً .

الجُزء الآخر منّي يقول أني لستُ مستعدة للمزيد من التعقيد ، ليس الآن . هذا الأمر لن تفهمه أمي أبداً ، فهي ترى أني مؤهلة للزواج منذ أن كُنت في السابعة عشر ، في اللحظة التي صرتُ فيها امرأة وامتنعت عن الصلاة .

كنتُ أطلي أظافري واحداً تِلوا الآخر بلذّة المحروم الذي وجد حريّته أخيراً ، أزيّنها بالفراشات والأزهار ثُم أُعاقب على ممارسة رغباتي الأنثويه تحت سقف المدرسة ، أمُد يديَّ للاستاذة الحانقة في أوّل الصباح وأمام الجميع ، بينما أقِف أمامها بجسدٍ يرتعش وعينان تحدّقان بفزَع . فتمسح الطلاء بخشونة وهي تُتَمتِم إمتعاضاً على تربيتي وأخلاقي التي سمحتا لي بأن أكون سبباً في فتنة الرجال الذين يرونني خلال الثلاث دقائق التي أعبُر فيها من بوابة المدرسة إلى سيارة والدي .

بقيّة اليوم ، كُنت أخبّئ أظافري في جيوبي أمام صديقاتي وزميلاتي في الصف ، كي لا يُحرجني منظرها المتقشّر والشاحب بسبب مُزيل الطلاء ، لم أفهم سبب هذا التصرّف ، هل طلاء الأظافر سيحول بيني وبين فَهمي للدروس؟

لن يؤثّر بي سَلباً إطلاقاً ، على العكس سأكون سعيدة وأكثر قابليّة للتفاعل والنشاط . صبيّة أُخرى مثلي ستفهم ما أعنيه ، هذه العلب الزجاجيّة الصغيرة ليست مجرّد ألوان نُزيّن بها الأظافر ، إنها تطلي قلوبنا بالفرح والانشراح ، تماماً كما

تفعل ألواح الشوكولا والمثلّجات . لا أفهم كيف لمكانٍ أنثويٍ بحتٍ أن يُعادي هذا الجمال . .!

الكِريمات المرطّبة وفرشاة الشعر وحتى المرايا كانت من كبائر المحظورات ، حقائبنا للكُتب والأقلام فقط ، كُنا نهرّبها كالمخدرات في جواربنا وأكمام ملابسنا الطويلة . أتذكّر كيف كُنت أشعُر بالذنب بسبب رشّة عطر خفيفة مسحتُها على رِسغي في وقت الفُسحة ، أتذكّر الماء الجارِف من الصنبور ، وارتعاش يديَّ وهي تُحاول التخلّص من رائحة الورد والأزهار ، حتى لا أكون محل شك . .!

لا أدري كيف تكون فطرتي خللاً أُعاقَب عليه . ولم أفهم أبداً لِمَ يجب أن يكون هناك تناقض بين الاهتمام بمظهري ودراستي . كلّ الجمادات التي يُفترض ألا تُغادر حقيبة الصبيّات ، عاملوها كالخطايا التي تختصر الطريق إلى جهنّم ، نزعوا المرايا من الجُدران ، منعوا الكريمات وفرش الشَّعر وطلاء الأظافر وحتى الألوان الأنثويّة الجميلة للأحذية وربطات الشعر ، أي رجُلٍ يُمكن أن يخترق الطبقات القماشيّة السوداء

التي تُغطينا ليُفتَنَ بربطة شعر ، أو حتى حذاء يحمي قدماً صغيرةً لم تكتشف الحياة بعد . .!

نقصٌ في ثقافة الجمال ، والحُب ، والمُعاملة . .!

هذا أسوأ داءٍ يُمكن أن يُصيب أحدهُم ، فما بالك بمؤسسة كبيرة كالمدارس التي من شأنها أن تُنشئ مُحاربات لا تنحني ظهورهُنّ أمام أحدٍ غير الله ، على عكس هذا كانت تُنشئ سرباً من الكائنات التي ترى نفسها كُتلةً من الفتنة يجب أن تتعفّن بين الجُدران .

مجرّد التفكير في الأمر الآن أصابني بالضيق ، متى تنتهي هذه الليلة وأعود للبيت لأستبدل هذا الفُستان بملابس مُريحة أغوص فيها ، وأرمي جسدي على السرير غير مهتمّة بمظهري الفوضوي ، غُرفتي هي المساحة الوحيدة على هذه الأرض التي أكون فيها حُرّة دون قيود .

أستطيع أن أكون كاتبة ، وعالِمة ، وراقصة ، ومُغنية ، ومُمثّلة ، ومذيعة ، وعارضة أزياء ، ومُصممة ، وناقدة . أتلوّن كالحرباء وأتشكّل كما تشتهي نفسي دون قلق أو توجُّس من

احتماليّة تعرّضي للقذائف والسِهام .

لا أحد يحق له التدخّل في قراراتي واختياراتي المصيريّة ، هل أنام الآن أو أكتُب؟ أستحمُّ أو أقرأ كتاباً؟ أرتدي هذه الملابس أو الأخرى؟ هل أتابع فيلماً أم أُكمل المُسلسل ؟ ليس لأحدٍ عليَّ سُلطة ، أكون حُرّة حتى تطأ قدمي الأرض خارج مساحة غُرفتي ، لأعود أسيرةً حائرة بين إرضاء نفسي وإرضاء أمي والآخرين ، ودائماً ما أهمّش نفسي لأفوز برضاها ، حتى وإن اضطرّني هذا لأن أكسر وعداً وأكون حاضرةً الآن .

أقصى درجات الاستقلال يُمكن لصبيّة كادحة مثلي الوصول إليها ، هي غُرفة نوم بسريرٍ واحد وخزانة ملابس لها ذات المقاس . وللصبيّات المُدللات غُرفة نوم وأُخرى للملابس وحمام خاص يُتيح لها الاسترخاء في حوض استحمام مليءٍ بفُقاعات الصابون المعطّر . تُرخي رأسها على مؤخرة الحوض وتغفو ، دون أن يُزعجها أحد .

لا زلتُ أتذكّر الفوضى التي تَحدُثُ حين كانت في غُرفتي ثلاثة أسرّة يفصُل بينها منضدةٌ خشبيّة . اختلاف الآراء

والأفكار ، مجلّات مُتناثرة تُجاورها كُتب طبخ وفتاوى وروايات ، انعدام الخصوصيّة تماماً ، لا يحق لأيٍّ منا إقفال الباب والاختلاء بنفسها لبعض الوقت ، ورُغم كل هذا التشوّش والتضادّ لا أستطيع إنكار الحُب الذائب في الجو ، والحميميّة التي تطوّق قلبي في ليالي السهر المُزدحمة بالمأكولات والثرثرة .

كل هذا الحُب غادر مع أخَواتي ليحتلّ منزلاً آخر ، ويتقاسمهُ رجُل ومجموعة من الكائنات الصغيرة ، تناقص نصيبي منه حتى صار كومة من البيانات التي تصلِني منهُن عبر تطبيقات المحادثات والرسائل النصيّة . عزائي الوحيد هو أني صِرتُ حُرّة ، ولو لبعض الوقت .

هذه الحريّة التي تركْنَها لي ، أفسدها عليَّ الحُب مرّةً أُخرى ، وأنا التي ظننتُ أني أحكمتُ إغلاق بوّابة قلبي حتى تراكم عليه الغُبار . وجدتُ نفسي أسيرة رجُل آخر ، وعُدت صبيّة عاطفيّة ليّنة تشكّلها الكلمات ، لا أدري كيف حدث هذا ، فجأة ضاق قلبي وتقلّص عالمي ليكون في هيئة رجُل اسمه «كرم» . .!

صادفتُه في نقاش حاد مع بعض الأعضاء في منتدى ثقافي ، تضادُّ آرائنا جعَلَنا ننسحب من الازدحام ونُكمل الحديث عبر الرسائل الخاصّة ، التي صارت مع الوقت جُزء من الروتين اليومي . المُضحك في الأمر هو أنه تمّ إيقاف عضويّاتِنا من إدارة المُنتدى بسبب «التواصل المُبالغ به» ، رُغم أن حديثنا كان أبيضاً صافٍ كالسماء .

آلمني ارتطام قلبي حين وقع به ، حاولتُ تجاهل الألم اللذيذ الذي شعرتُ به والتظاهر أن ما بيننا لا يتجاوز الصداقة ، كذبتُ على نفسي كثيراً لأتحاشى حقيقة أني أحبّه ، خشيتُ أن أعود ضعيفة حمقاء ، أقصى أحلامي هي مكالمة هاتفيّة تمتدُّ حتى ساعات الصباح . لم أكُن مُستعدة للخوض بتجربة عاطفيّة أُخرى أعلم مُسبقاً أنها ستفشل ، لن أجني منها عدا البُكاء ومزيداً من التعاسة .

كانت عواطفنا واضحة لكننا لم نجرؤ على البوح بها ، أتذكّر تلك اللحظة التي كُنا نتبادل فيها الثرثرة في أول الفجر ، كان مُسترخٍ على مقعدٍ خشبي في الشاطئ بينما أنا جالسة

على أريكة غُرفتي ألوي أطراف شعري بدلال ، كُنت أسمع أمواج البحر وأشعُر بنسمات الهواء تلمس قلبي الذي كان مُزهراً وسعيداً وهو يشاركني الاستماع لمعزوفة موسيقيّة هادئة ، شعرتُ كما لو أن ألوان الحياة قد انسحبت ولم يبقَ منها إلا الأسود والأبيض ، وأن نافذتي تحوّلت لشاشة تلفاز عتيق ، يجلس أمامه أشخاص طيّبون ، يترقّبون اللحظة بخجلٍ لطيف .

كانت اللحظة التي ماتت فيها لذّة الإعجاب وأصبحنا رسمياً عاشقين ، لم يُعد هُناك «فريدة» وَ«كرم» ، سقطت أسماؤنا واحتلّت مكانها «حبيبي» و«حبيبتي» ، تبادلنا قلوبنا برضى وقناعة ، وأصبحَت المسؤوليّة تجاه بعضنا أكبر وأعظم .

عاطفياً كُنت مُكتفيةً تماماً به ، شعرتُ بأني لم أعُد مُتاحة لرجُل آخر رُغم أن أمي في تِلك الفترة كانت تصلّي من أجلي وتأمَل أن يكون كُل اتصال من رقمٍ غير مسجّل في هاتفها هي امرأة تبحث عن صبيّة صالحة لابنها . تمنّيت لو أستطيع إخبارَها عنه فيكون السِّر اللذيذ الذي لا يعرفه أحدٌ غيرنا في المنزل ، ننتظر حتى ينام والدي أو يخرُج من المنزل لأحدّثها عنه ورأسي

مُسترخٍ على فخذها بينما تمشّط شعري وتبتسم لي وتُشاركني أسرارها العاطفيّة مع والدي في أيام الشباب ، فأنقلب على بطني وأُسند رأسي بين كفيَّ وأعود طفلة تتذوَق الفرح بصوتها الطاهر .

كل هذا مجرّد حُلم يُثير الضحك والبُكاء في آنٍ واحد ، حتّى أني لم أجرؤ على كتابته في مذكّراتي ، كان يَعْبُرني كالخيال في اللحظات التي أنقطع فيها عن الواقع وأراها صديقةً مقرّبة قبل أن تكون أمي .

«كرم» لم يكُن مجرّد صورة رمزيّة واسماً ناقصاً مشذّباً ، كان حقيقياً أمام عيني وقلبي ، أعرف طوله ووزنه ولونه وشخصيته ، أعرف أفراد أسرته بالاسم والعُمر والعادات ، أعرف أن والدته جميلة وطبّاخة ماهرة ووالده متقاعد يهوى القراءة عن السياسة والأدب ، وأخته طموحة تدرس الطب وإخوته الأربعة لا يزالون يكافحون في مشوارهم الدراسي ، رأيتُه رضيعاً وطفلاً ومراهقاً وشاباً ورجُلاً يمتلك عرش قلبي . في كل مرحلة كُنت أدُسّ نفسي في المساحات الفارغة داخل

الصور . كان حقيقياً حدّ أني شعرتُ بخشونة ذقنه على جلدي حين أكون مُستاءةً ويحاول صوته أن يحضن قلبي أثناء مكالمة هاتفيّة .

مرّة واحدة في حياتك تعرف شخصاً يقرأ عينيكَ من خلال سمّاعة الهاتف ، وأنا على قناعة تامّة أنه هو هذا الشخص ، ولا أحد غيره .

أخيراً ، تذوّقت طعم الحُب مع رجُل طيّب يناقشني عن آخر كتاب قرأته لا عن مقاس ملابسي . يشاركني تفاصيل يومي حتى في أيام العمل المُزدحمة ، لا يخجل من أن يُظهر ضعفَه أمامي ، بكينا معاً حين مات صديقه المقرّب الذي شاركه كل سنوات الدراسة والتقط صورة معه في يوم التخرّج لا يزال يحتفظُ بما تبقّى منها في محفظتِه ، بكينا حين اشتدَّ عليَّ المرض وبقيتُ في المُستشفى لأربعة أيام كان فيها أقرب إليَّ من أنفاسي ، بكينا في كل مرّة كِدنا فيها أن نخسر بعضنا ، وفي المُقابل ضحكنا معاً أكثر وأكثر .

معه اكتشفتُ الحياة لأوّل مرّة ، كطفلةٍ بدأتْ تمشي للتوّ

وتتعرّف على العالم المُحيط بها ، لم أخجل من البوح بمشاعري اللحظيّة أمامه ، وكان يُدللني بطريقة تُشعرني بالكَمال ، لم يُخبئني في الظلام كالخطايا ولم يكُن الحديث معي محظوراً داخل المنزل ، كُنت أسمع أصوات عائلته والصخب اللطيف الذي يُحدثه إخوته الصغار وأشعُر أني قريبة ، أشُم رائحة الأطباق التي تُعدّها والدته وأتحدّث مع أخته بعفوية الصديقات اللاتي يتبادلنَ الأحذية والحقائب .

كل شيءٍ كان مثالياً ، لا شيء ينقُصنا عدا ورقة تحوّل كل الحرام بيننا إلى حلال ، تقلّص المسافات حتى يختلط عطري بعطرِه وأنكمش أمام طوله الشاهق بخجل .

لكن ما حدث جعلني أفكر بالتخلّي عن هذا النعيم ، بعد أن بدأ بالتهرّب والمماطلة في كُل مرّة أذكره بالوعد الذي قطعه بأن أكون خطيبته في نهاية الشهر ، وكُنت على أتم الاستعداد لأن أتحدّث مع والدتي وأخبرها بأن حُلمها تحقق أخيراً . تواصلت مع أخته ودبّرنا معاً خطّة نغلّف فيها علاقتنا العاطفيّة حتى لا تكون عائقاً ، كل شيء كان جاهزاً ولم يتبقَّ شيء عدا

الخطوة الأخيرة ، أن يرتدي الزيّ الرسمي ويتبخّر ثُم يزور أبي برفقة والده . . لكنه لم يفعل . .!

اضطررتُ للابتعاد وتجاهل رسائله واتصالاته التي كانت لا تتوقّف على مدار اليوم ، ليس لأني مُستاءة وأنتظر اعتذاراً عظيماً يليق بي ، بل لأني أدركت أخيراً الحقيقة ولم أعُد أشعُر برغبة لمواصلة هذه المهزلة ، ظننتُ أنه رجُل لعوب ، لا شيء يستطيع تقديمه لي أكثر من الثرثرة .

الأمر الذي أفزعني هو أني كُنت مُخطئة تماماً في هذا الظن . .!

«كرم» لم يكُن لعوباً ولا رجُلاً جباناً ، على عكس هذا . هو أعظم رجُل عرفتُه في حياتي وأعلم حتى هذه اللحظة التي أقف فيها إلى جانب أمي في صالة العشاء أنني لن أحب أحداً كما أحببتُه بكاملي دون تشذيب .

العائق الذي جعله عاجزاً عن اتخاذ الخطوة الأخيرة ، هو أكبر وأعظم مني ومنه ومن أي أحدٍ آخر ، ولا أظن أن هناك حلاً أو طريقة نستطيع أن نتجاوزهُ فيها ، إنه لا يتعلّق بالمجتمع

ولا بالقبيلة ولا برغبته الأساسيّة في أن أكون امرأتَه أمام الناس ، إنه أكثر من هذا . .!

لم أستوعب الأمر في البداية ، بقيتُ في حالة إنكار لبعض الوقت ، كيف أخفى عني أمراً مهمّاً كهذا طول الوقت . .!

في آخر مكالمة هاتفيّة ، اعتذر لي وأخبرني أنه كان خائفاً من أن أهرُب حين يُخبرني بالحقيقة أو تتغيّر مشاعري نحوه ، حاول قدر الإمكان أن يحتفظ بي مدةً أطول حتى وإن اضطرّه هذا للكذب . وأنا أبكي في الطرف الآخر من السماعة دون أن أُصدر صوتاً ، أحسَّ بي وقال :

- «لا تبكين حبيبتي ، مو ذنبك إن مذاهبنا تختلف» .

الليلة التي ودّعني فيها وغادر للأبد أحسستُ أنّ قلبي انشطر نصفين ، نصفٌ ذهب معه والآخر يحاول ترميم النقص والتعايش بما تبقّى منه ، هذا الأمر موجع ومُحزن جداً .

كان عليَّ أن أعلم مُسبقاً أن شيئاً مثالياً كهذا لا يُمكن ألا تشوبه شائبة أو يُفسده شيءٌ ما ، لا أتذكّر متى كانت آخر مرّة

ابتسم لي فيها الحظ دون أن يعبس في الأخير ، لا أُسيء الظن بالله ، لكني أتساءَل بغصّةٍ مقهورة . . لمَ يحدُث لي هذا دائماً . .؟

«الحظ السعيد لا يُصادق الجميلات» ، لكني لستُ بهذا القدر العالي من الجمال .! سمراء ، ملامحي مقبولة ، وشعري ينكمش تحت الماء ويتموّج وحتى نحالتي ليست مُغرية . . إذاً ما الأمر ؟

هل أنا إنسانة سيئة وأستحق هذا العقاب يا الله؟ أعلم أني أرتدي النقاب وعباءةَ كتفٍ وأسمع الموسيقى ، لكني في المقابل لم أظلم ولم أقتل ولم أفوّت صلواتي ، أقرأ القرآن وأصوم وأذكرُك كثيراً .

عميقاً في داخلي كُنت أُدرك أن الأمر كله يتعلّق بسوء اختياراتي ، لكن الاعترافَ بهذا سيَنسِف تاريخي العاطفي مع «كرم» ، وهذا ما لا أريده أن يحدُث . .!

في هذه الفترة التعيسة أصبحت حروفي ثائرة ، وصارت قضيّتي الأساسيّة هي الانتقاد والسُخرية على الحياة المشوّهة

التي نعيشها في هذه الأرض ، على كل عادة سطحيّةٍ وقانون لا يحترمني . انتفَضَ الناس من قائمة المتابعين والقُرّاء وتناقص أعدادهم إلى النصف ، لكن هذا لم يوقفني عن الكتابة بروح مكسورة تشبّثتْ بالحرف كوسيلة أخيرة للحياة . بعد أن كُنت صبيّة حالمة تكتُب بخيالٍ وردي ، صرتُ أُخرى غاضبة حروفها كالأشواك ، ولا تكترث بأحد .

أصبحتُ مُحارَبَة وصارت تربيتي وعقيدتي مُباحة للشتائم والانتقاص ، بعد كلّ نصٍ أكتُبه تثور معارك وحروب في مساحة التعليقات ، أقرأها وأنا أضحك ضحكاتٍ موجوعة تنتهي عادةً بغصّة بُكاء . مُحزنٌ ألا يشعر بك أحد ، مُحزن ألا يكون في حياتك شخص تستطيع أن تتحدّث معه عن حُزنك وتعلم مُسبقاً أنه يحبك كفايةً ليتحمّلك في أسوأ حالاتك .

بعد أن انتقلت «كارمن» إلى باريس صار تواصلنا نادراً وفي فترات مُتباعدة . كانت لا تزال تتنقّل من عمارة إلى أُخرى برفقة خالتها ولم تستقرّ بعد . بقيتُ أنا في الجُزء الآخر من العالم أحاول أن أواسي قلبي المخذول بالكتابة .

أليسَ من الرحمة والعطف أن ينزع الله عنا نحنُ أبناء هذه الأرض فطرة الحُب؟ والرغبة في أن نعيش علاقة غراميّة طبيعيّة لا يُفسدها اختلاف خواتيم الأسماء والمذاهب والجنسيّات؟ علاقة علنيّة لا تخاف هبوط خيوط الشمس على تفاصيلها الجميلة أمام الناس . بعيداً عن هذا التحفّظ الشديد والرهبة أثناء كتابة رسالة أو تلقّي مكالمة للسؤال عن الحال والثرثرة . بعيداً عن الشعور بالذنب والخطيئة كما لو كُنت قد رميت تعب والِدَيك في تربيتِك وعقيدتك عرضَ الحائط .

هذه الاستفهامات كانت إجاباتها على هيئة «زينة» صبيّة جميلة ارتبط بياض قلبها بالسرير الذي يفصل بينها وبين الحياة ، ورُغم هذا لم تقنط وتستسلم لتكون دُمية يشكّلها المرض حيث يشاء . حين رأيتُها أوّل مرّة لم أصدّق أنْ ملاكاً مثلها ينهشُه التعب ، وأن هذه الروح الحلوة تختنق من رائحة المستشفيات والأدوية ، كانت مثاليّة لدرجة أحسستُ أنها خرجت من صفحة حكايا خُرافيّة . .!

لا أعرف كيف استطاعت ابنة عمّي التي عرّفَتْني إليها في

حفل تخرّجها من الجامعة ، أن تنقطع عنها وتنشغل مع صديقات أقصى اهتماماتهنّ الأكل والضحك . .!

في طريقها للموت كانت تأخذني للحياة أكثر ، تشدّني إليها كلما فقدتُ رغبتي للمواصلة ، لم تستخدم حالتها الصحيّة السيئة لتقدّم لي نصائحاً مُستهلكة وتستعرض قُدرتها على محاربة المرض أمامي لأتّعظ وأستشعر نعمة العافية التي ما كفرتُ بها يوماً . كانت تتواصل معي كصبيّة عشرينيّة يُتعبها الحذاء الرفيع ، وتُزعجها أثر البصمة على طلاء الأظافر ، وتفضّل هذا الكاتب على الآخر . تُناقشني عن الكليبّات الغنائيّة وطلّة الفنانة الفلانيّة ، تسخر من نتيجة تلاعب الشهيرات بملامحهن تحت مشرط طبيب التجميل ، ترشّح لي مجموعة أفلام تابعتها مؤخّراً وتُحدد معي موعداً بعد أن أتابعها لنتحدّث عنها ونتبادل الملاحظات .

كانت طبيعيّة ورائعة ، لا تخجل من نواقصها ولا عيوبها ، تظهر في شاشة جهازي الكمبيوتر المحمول بشعرٍ غير مرتّب وهالات سوداء وملامح متورّمة من أثر النوم . تنزع حذاءها

الرفيع تحت طاولة الطعام وتُمدد قدميها لتتنفّس وتسترد عافيتها . تستقبلني بمنزلها في بيجامة ولا تعتذر عن فوضى غُرفتها وملابسها المتكوّمة على الأريكة والسرير .

كُنت أستمع إليها في الطرف الآخر من السمّاعة وأنا أبتسم حين أخبرتني عن قصّة الحب التي عاشتها مُنذ أن كانت صغيرة تأتي مع أسرتها في المناسبات العائليّة والأعياد لزيارة أقاربهم الذين يعيشون في منطقة بعيدة ، كيف كانت تنتظر الصباح بلهفة تُحارب فيها النوم حتى تُشرق الشمس ليغلبها النُعاس فتنام طيلة الطريق ، عن شعورها بالخجل واختبائها خلف الباب حين تلمح طيفه وتسمع صوته ، كيف كان ينظُر إليها ولا يتوقّف عن الابتسام والتورّد . يستمرّان طيلة تواجدها في بيت أسرته المتواضع بالاختباء والهرب وتبادل نظراتٍ خجولة مَن وراء ظهور أمهاتهم .

بعد أن كبُرت وأصبحت صبيّة مُراهقة ، صار إلزاماً عليها ارتداء العباءة وأصبح وجهها الذي يُحبه محرّماً على عينيه ، لم تعُد فكرة المُطاردة العاطفيّة مُتاحة ، ولم يعُد مسموحاً له ، بعد

أن صار رجلاً بشارب وظلٍّ طويل ، التواجد داخل المنزل حين تجتمع العائلة ، كان قلبها ينقبض حين تلمحُه ينظرُ إليها سِرّاً من وراء الباب ، فتستدير عنه كي لا يرى اندفاع الدم إلى ملامحها ، فيُصاب بالفتنة .

بعد أن ساءت حالتها الصحيّة وانتشر خبر مرضها بين أفراد العائلة كالنار في الهشيم ، هذه الفترة اختفى فيها السِحر والخيال وسقطت من قائمة الترشيح للزواج ثُم صارت مشروعاً خيرياً تتناوب عائلتها على مرافقته والإشراف عليه . تخلّت عن أحلامها معه ، منزل وأطفال وحديقة ، ونزعتُه من ذاكرتها كما يستأصل الطبيب الأورام والأشياء التي يُسبب وجودها ضرراً وخطورة ، استسلمت للقدر وانتظرته طويلاً عند نافذة غُرفتها في المستشفى ليأخُذها للسماء . حاولت أن تُقنع الرجُل الذي أرهق جسده ليجمع ثروة عظيمة من أجلها أن يتخلّى عنها لكنها فشلت ، تشبَّثَ بها كما يفعل الغريق بطوق النجاة ، لم يكسر كلمته أحد بأن تكون زوجته ، ولا حتى والده الذي قاطعه وأقصاه من العائلة . .!

حينها استشعرَت النعمة التي كانت تحوّطها من البداية ومنعَها الألم من الإحساس بها ، نِعمة الحُب ، رجُل طيّبٌ سيحارب كل شيء يقِف بينه وبينها حتى تكون له ويشهد الله على ذلك .

لا شيء أعظم من نِعمة الحُب . . !

سخّرت أيامها القليلة للصلاة شُكراً وامتناناً ، أرادت أن تشكُر الله عليها بكُل ما تبقّى فيها من قوّة وقُدرة ، صارت مثالاً للحبيبة الطيّبة ، وقفت إلى جواره في أصعب اللحظات ، كانت له خير صديقة وامرأة ستُناصفه كل شيء ، حتى اللقمة الواحدة .

اليوم الذي وصلني فيه خبر وفاتها ، شعرتُ أن ذراعي اليمنى قد انفصلت عن جسدي ، ولم أعُد قادرة على مواساة نفسي الموجوعة ، لم أستطع أن أعيش حُزني بطريقة طبيعيّة ، أردتُ أن أكون حاضرة في العزاء لكني لم أجد من يُرافقني ، حتى ابنة عمي التي كانت صديقتها رفضت هذا بحجة الانشغال في الدراسة ، ولم أجد شيئاً آخر يعوّضني عدا الدُعاء المُبلل بالملوحة .

دعوتُ لها بالرحمة والسلام ، وضمَمْتُ أُسْرَتها بالصبر وكثّفت الدُعاء لحبيبها بأن يرزقه الله القوّة الكافية ليستمرّ كِفاحه في هذه الحياة ، أما أنا فكان دعائي لنفسي أن تتسرّب مني أحزاني حتى تنقضي .

لم أصدّق أن الليلة انتهت وعُدت أخيراً إلى جنّتي حيث السرير والحريّة ، رميت حقيبتي ونزعت حذائي الرفيع فاقشعرّت أقدامي من برودة الأرض الرخاميّة ، تحررتُ من العباءة والفُستان واندفعت تحت الماء الدافئ حتى تذوب عني العطور والمساحيق والهموم الثقيلة ، استرجعت كل الأحداث والمشاهد التي رأيتُها هذه الليلة ، أحسستُ وكأني عُدت بالزمن سنيناً للوراء ، إلى تِلك الفترة التي كُنت فيها راضية وسعيدة ولا شأن لي بالكلمات ما لم تقدم لي طبخة جديدة أو خلطة أستعيد بها نضارتي التي امتصّتها مني حرارة المطبخ والأعمال المنزليّة الشاقّة .

مُنذ أن خرجت من القوقعة التي حبسوني فيها ، أدركت مع مرور الوقت أن السبيل الوحيد لعيش الحياة التي أريد ، هو

أن أكون مُحارِبَة لا ينحني ظهرها أمام أحد .

أدركت أن أحلامي ثمينة غير قابلة للمساومة ، ثقيلة لا يتحمّلها رفُّ الانتظار ، عنيدة لا تخضع ولا تنكسر تحت سُلطة أحد ، آمنتُ أنه من السُخف أن أرضى بحياة الأميرات اللاتي لا يبدأن بالعيش إلا بعد قُبلة من فارسٍ عظيم لا يوجد إلا في صفحات الكُتب .

لم يعُد مُغرياً دور سندريلا التي فضّلت الانحناء والتشبّث بالمكنسة بدلاً عن المُحاربة والمقاومة ، مهما كان السواد حولكِ طاغٍ ، دائماً هناك اختيار آخر أفضل ، تصنعينه أنتِ .

لا شيء ألذ من أن تكوني بطلة نفسك ، أن تهزمي انكسار روحكِ وعجزكِ الذي أطعموكِ إياه مع الحليب ، أن تملئي نقصكِ الذي صار جزءً من عقيدة معطوبة ، أن تمضي في هذه الحياة امرأةً شُجاعة ، تعرف ماذا تُريد ، وتعرف تماماً كيف تحصل عليه .

امرأة كهذه يهابُها الجُبناء من الرجال وتغار منها الفارغات من النساء ، ليست مُغرية للصداقة ولا للحُب ، وحيدة تُثير

شفقة الآخرين الذين يرون امرأةً دون رجُل : لا شيء !

هذا الجُزء السيء الذي يُفسد مُتعة أن تكوني هذه المرأة في هذه البُقعة من العالم ، ولو كُنْتِها في مكانٍ آخر لصرتِ مثالاً تطمح إليه الصبيّات الصغيرات ، وأثرتِ الإعجاب بدلاً عن الشفقة ، وربُما ركع أمامكِ رجُل ثلاثيني وسيم ، وبيده علبة مخمليّة يتوسّطها خاتم من الألماس . . مجرّد التفكير بهذه الاحتمالات يجعلني أبتسم ساخرةً على نفسي ، ثُم أحزن .

«لطالما أردتُ أن أكون امرأة عظيمة ، أستيقظ صباحاً لأبدأ يوماً عملياً جميلاً ، لطالماً استهواني منظر المكاتب الفوضويّة وقائمة الالتزامات المُزدحمة ، لطالماً عشقتُ الملابس الرسمية وأكواب القهوة من الورق المقوّى .

لطالما أردتُ أن أكون امرأة رائعة لرجُل عادي أمام الناس وعظيمٍ أمام قلبي ، رجُلٌ لا يُثير فضول النساء ، وحدي أعرف سرُّه وأحفظه ، لطالما تمنّيت أن يكون لنا قبيلة من الكائنات الصغيرة ، يسحبونني إليه في لحظات الخِصام ويرددون بأصوات تُشبه العصافير : قبّلها ، قبّلها .

لطالما حلمتُ بحياة طبيعيّة ، أكون فيها امرأة تعود للبيت بعد نهار عمل شاق ، تجهّز وجبة العشاء بكُل حُب ، ترمي رأسها على صدر حبيبها وتُثرثر كطفلة حتى تنام . تُحدد وقتاً لتدلل نفسها برحلة تَسَوُّقٍ مع صديقاتها ، ثُم تعود لترى حبيبها في مئزر طبخ ، ينزع عنها المعطف ويُساعدها في حمل الأغراض .

هذا تصوّري لحياة الترف ، أن أكون امرأة قادرة على التوازن بين حذاءٍ رفيع وشعرٍ مُسرّح وبين القيام بمهام تتطلّب ظهراً صلباً لا يتعب ، والكثير من الحكمة والذكاء ، لا أريد أن أكون كائناً مُعطّلاً لا يُنتج إلا الأطباق الدسمة والأطفال» .

وضعت القلم جانباً ، وأعدتُ قراءة ما كتبت في دفتر مذكّراتي ، بدا لي مُضحكاً ولو اطّلع عليه أحدهُم لسَخِر مني ، بدأت أشطّب الكلمات رُغم أني أعلم أن لا أحد يُمكنه الاقتراب من مساحتي الخاصّة هذه ، أمي لا تقرأ وأبي لا يدخُل غُرفتي إلا أثناء الأعطال في جهاز التكييف أو الإضاءة ، لكن شعوراً بالخوف تملّكني وجعلني أستمرّ في تشويه الصفحة

حتى مزقتُها وكوّرتها في يدي ثُم رميتها في صندوق القُمامة ، إلى متى سأستمرُّ في كتابة هذه السخافات ، إلى متى سأحلُم بحياة امرأة شقراء يكسو وجهها النمش وأنا أرى في المرايا صبيّة عربيّة سمراء ، شعرُها أسود كعينيها الحادّة .

إنّ أكثر ما يُحزنني هو أنّ فتاة في الثامنة عشر تمارس أحلامي المُستحيلة كجُزء من روتينها في الحياة ، نُزهة حول الحي في الصباح ، رحلة سفر ، وظيفة بسيطة ، ورجُلٌ يقاسمها الحُب والخُبز .

كلما كشّرت الأيام في وجهي أعطيتها ظهري على طرف سجّادة وقابلت ربي حبيبي ، أُحوّطُ روحي المخدوشة بشال الصلاة الذي كان هديّة من أختي حين عادت من مكة بعد أن قضت آخر أيام شهر العسل هُناك ، أهدتني سجّادة ومسبحة وفي اليوم ذاته وصلتني الكُتب التي طلبتها من «كارمن» ومعها مجموعة أقراص موسيقيّة ، فرحتي بالهديّتين عظيمة ، صارت بالنسبة لي كالحلوى التي أتغاضى بها عن مرارة الحياة ، بالصلاة أشعُر بحب الإله يلمس قلبي وأجد فيها راحتي

وملاذي ، والموسيقى صديقة الأوقات الصعبة ورفيقة الحُزن والبهجة ، الكُتب سبيلي الذي أتخفف فيه من زحمة الاستفهامات وأرتّب الفوضى في داخلي .

حافظتُ عليها كما لو كانت أثمن مُمتلكاتي ، بها كُنت أشعُر أني على قيد الحياة وليس الوجود فقط ، في كُل مرّة أتحسس نعومة المخمل في السجّادة ، وأشُم رائحة البخور بين خيوط قماش الشال ، حين أغرق في المعزوفات الموسيقيّة وأضيع بين الكُتب ، أشعر بالحياة تتغلغل في مسامات روحي ، وتتمدد !

سجادة الصلاة لا تعطيني ظهرها ، المسبحة لا تملّ من قبضتي ، الورق لا يتهرّب ، والموسيقى لا يزعجها التكرار . الجمادات تتعاطف معي أكثر من البشر ، لأنها وُجِدَت في هذه الحياة من أجلي ، البشر مجرّد أجزاء ، لكُلٍ منهم عالمٌ آخر أنتَ لست طرفاً فيه ، عالمٌ يحوي أصدقاء وعائلة والتزامات عمل ومسؤوليّات أهم من لحظات حُزنك وضعفك . دائماً حين تمُرّ بأزمة عاطفيّة وتفقدُ قُدرتك على الثبات فَتَلِينُ رُكبتاك وتجثو

مُستسلماً ، ارْفُضْ كُل الأيادي التي تمتد نحوَك لتُساعدك على النهوض وحاول أن تفعلها بنفسك ، هذا الضعف قد يفسّر أدنى مُحاولة للمساعدة تفسيراً عاطفياً بحتاً ، هذا الشخص الذي مدَّ لك يد العون ، قد يكون فعلَ ذلك لأنه إنسانٌ طيّب ، وأنت بهشاشة روحك ستظُنّ أنه بطلُك الذي سينتشل هذا الحُزن الأجدب ويستبدلُه بأرضٍ خضراء من السعادة . تستمرُّ بانتظار الخطوة الأولى التي يبوح لك فيها عن مشاعره ، تبني أحلاماً من طينة الخيال وتكتشف فيما بعد أنك لم تكُن سِوى «عمل خير» . . !

وفّر على قلبك عناء الخوض بهذه الخيبة وانهض بنفسك .

وهذا ما فعلتُه أنا ، توقفتُ عن الشكوى والسؤال ، عطّلت قُدرتي الكتابيّة في العلن لبعض الوقت واستمرّيت أكتُب لنفسي على ورق حُرّ ، دون سطور تضع لي سقفاً لا أتجاوزه . وقعتُ في غرام لون شعري الجديد وفساتيني التي اشتريتها لأنها أعجبتني فقط ، وهذا أعظم دافع لاقتناء غرضٍ جديد . تقبّلت طبيعة الحياة التي فرَضَتها عليَّ البيئة الحياتيّة هُنا ،

وكُنت حين تطأ قدمي أرض غُرفتي أرمي كُل شيء وراء ظهري وأكون «فريدة» التي قد تصنع من هذه المساحة الصغيرة عالماً آخرَ، لا يُشبه هذا التصحّر والجفاف .

هذا قدري، وهذه حياتي التي لن يتغيّر فيها شيء عدا طلاء الجُدران والأثاث، والانتقال من النوم في سرير مُنفرد إلى آخر مُزدوج مع رجُل لم يختارني ولم أختَره . رضيتُ بهذا كُله وحاولت أن أستغلّ الحريّة الفقيرة المُتاحة لي، حصلتُ على غُرفة جديدة، وقصّة شعر عصريّة، والكثير من الأحذية والحقائب والكُتب، كافحتُ في سبيل الحصول على شهادة إجادة اللغة الإنجليزيّة وعلوم الحاسب الآلي وزيّنتُها في إطارٍ خشبي جانب شهادتي الجامعيّة، ورُغم هذا كُله لم تفخر بي أمي إلا في تِلك اللحظة . . !

استنشقتُ رائحة الحنّاء في شعرها حين ضمّتني بعد أن أخذَت مني الإجابة التي تُريدها، ثُم استدارت عني لتتصل بأم العريس وتُخبرها بموافقتي، كانت لا تزال يدُها الدافئة تُمسك بيدي أثناء المُكالمة، أشعُر بها تضغط عليَّ برفق وهي تتحدّث

إليها وتبتسم ابتسامة رِضى وسعادة عارمة . انتشر الخبر بين أفراد العائلة بلمح البصر وانهالت علينا التبريكات من كُل ناحية، أخيراً «فريدة» ستتزوّج، ويُعترَفُ بها كفردٍ له الحقّ بالمُشاركة في مجالس النساء دون أن يُنظَر إليه بشفقة أو استصغار .

كل ما أعرفُه عن الرجُل الذي جَهّزتُ له القهوة ليقدمها له أبي هو أنه ضابط في آخر الثلاثينات، مُطلّق دون أولاد، يُريد امرأة جميلة وعاطلة تُجيد الطبخ، امرأة عاديّة دون مزايا .

انكمشتُ أمام طوله الفارع حين نهض إلى جانب والدي ليستقبلني بابتسامة بيضاء . ملامحه حادّة وسُمرته دافئة، ذقنٌ مُشذّب ورائحة عود ثقيلة تفوح من ملابسه . وعلى الطرف الآخر من الحائط تنتظرني أمي وهي تجمع كِلتا يديها على صدرها وتُردد الدعوات .

هكذا حدث كُل شيء بسُرعة، تبادلنا أرقامنا بعد توقيع عقد الزواج وصار صديقي خلال فترة ما قبل ليلة الزفاف . لم أطلُب حدثاً خُرافيّاً، أردتُها أن تكون ليلة حميميّة، بسيطة، تجمع الأقارب وأصدقاء العائلة فقط .

مـضت الأيام هادئة بشكلٍ أثار فيَّ الفـزع ، شـعـرتُ بأنّ شيءً ما سيعكّر صفوها ، قلبي لا يطمئن للأشياء حين تكون بحالة مثاليّة ، ترقّبت حدوث كارثة أو انتكاسة تسلُب هذه الفرحة ، ولكن لا شيء حدث ، مرّت اللحظات سريعاً حتى وجدتني في فستان أبيض من الدانتيل ، مطرّز بنعومة . غمرني شعور الأميرات وسط هذا الاهتمام الكبير الذي أتلقّاه ، بعيداً عن المساحيق وتمشيط الشعر ، أمي كانت أقرب إليَّ من أي وقت آخر ، حضّرت لي وجبة وحرصت على أن أتناولها كاملة ، كانت حاضرة في أدق التفاصيل ، لا تكُفّ عن الدُّعاء من أجلي ، أشعُر بالفرح يتدفّق من عينيها على هيئة دموع تُحاول تجفيفها برفق في كُل مرّة تُغادر الغُرفة لتهتم بالضيوف .

أبقى برفـقـة أخَواتي اللاتي يسـرِدنَ عليَّ حكاياً طريفة ويقاسمنني الشغور بالفرح المغلّف بالحُزن .

في اللحظة الأخـيرة ، وقـبل أن أُرخي ظهري على المقـعـد المُزدوج المزيّن بالورود والأقمشة البيضاء الحريريّة ، قبل أن أحرر قلبي من القلق والتـوجّس ، في اللحظة التي كُنت فيـهـا على

وشك الاستمتاع بشعور الرهبة حين أسمع صوت الزغاريد وتختلط الموسيقى بالعطور وخيوط البخور العائمة بالجو ، مُعلنةً وصول العريس . استوقفني صوت تنبيهِ رسالة جديدة في صندوق البريد ، هاتفي في الحقيبة الصغيرة على الطاولة المُجاورة ، شيءٌ ما جعلني أنهض من مكاني لأتفقّد الرسالة ، ولَيْتَني ما فعلت . ليتني ما سمعت شيئاً ، ليتني تخلّصتُ من بريدي الإلكتروني كما أتخلّص من ملابسي القديمة . الكارثة التي توقّعتُها جاءت مُتأخرة حتى كدتُ أن أكذّب شعوري ناحيتها . كل المتاعب التي خضتُها لأكون امرأة عاديّة ترضى بحياة مُتكررة لا شيء فيها يُثير الاهتمام ، اندثَرتْ وصارت حُطاماً ، حين ذكّرني عنوان الرسالة بأني لن أكون إلا «فريدة» . .

«يوسف» :

– فريدة ، أنا عائد ، اغفري لي ذنب الرحيل . «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ» .

الوقت : ٣٥ : ٩ مساءً .

حالتي الآن : مهزومة . . !